

سحرة عزام

أشياء صغيرة

قصص



أبو عبدو البغل

دار العلم للملايين
بيروت

١٩٥٤

سَمِيَّةُ عَزَام

أَشْيَاءٌ صَغِيرَةٌ

دَارُ الْعِلْمِ لِلْمَلَايِينِ
بَيْرُوتَ

١٩٥٤

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى

بيروت ، شباط ، ١٩٥٤

الأشياء الصغيرة

٤

هل ذهبت بعيداً ؟

لا تدري ، ولا تريد أن تدري بالضبط ! كل ما في يده هو ان تعيش في هذا الاحساس ، وان تبقى طويلاً هذه المساعرة الخلوّة ، ان تأخذ معها الى محاربتها شيئاً جديداً مختلفاً ! فكل شيء في وجودها يبدو قزماً امام هذا الاحساس ، حتى ابوها وامها وعمتها ومعلماتها !

ليذهبوا الى ابليس جميعاً !

ما ازهداها في ساعتها بمواعظهم ! ستمسها بعد الآن في صبح ومساء ، وكلما اختلفت الى مكان او تخطرت في درب ، فتبسم برثاء ، وتتلفف بجزء رأس ، وتذكر اذناها وقلبها ونفها ما تسمع حتى لتخر من قيمها القديمة .

هؤلاء لا يفهمون ، اما هي فقد بدأت تفهم ! ولن تتأذى بعد من مزاح تنالها به الرفيقات اذ يقلن : انت يا هذه حمقاء تعيش بعقلية ابيها وامها وعمتها العانس !

حقاً لقد كانتهم ، ثلاثتهم ، ولكنها الآن انسانة متجددة الاحساس ، وستبني وجودها بعد اليوم ، بحسبها ، بارادتها ، لا بقولهم - ابيها وامها وعمتها العانس - لا تكون في كالأخريات الرغناوات فانت غير اولئك اصلاً ونبأً ، انت ، وانت ..

في الغد ستجتمع رفيقات الدرس عند السديانة المنخوبة ،
ويتحدثن في اشياء كثيرة ، وستمند الايدي في حذر الى الجيوب
فتخرج بالرسائل المعطرة فتفتح لها عيون الصبايا وقبلها قلوبهن ..
وللمرة الاولى سيكون لها ما تقوله اذا شئت ان تقول ، فلديها
من حكايا وحكايا . وحتى لو صمتت - ولا يعد ان يقعد بها الحجل
فتصمت - فلن يكون صمتها صمت المقصر بل صمت الضنين ، وهي
- نفسها - ستعكي الحكاية بدقائقها الصغيرة التي تعيها جيداً ،
فلاطالما استعادتها كلما التفت الى مخدتها رأساً او قبعث نحلم في زاوية
الحافلة او سرحت في الدرس فلا تسمع منه إلا صوت الجرس ..
وتلك صورته قريبة ، تستدعيها كلما أرخت جفناً ، فتوافيها مختلطة
اولاً ، ثم تتضح وتتميز ، وتبين جيداً الجبهة الملوحة السراء والعين
البينة المداكنة والابتسامة التي هي أحلى ما في الوجه .

بودها لو تمر بها ساعة تكون معهن في حلقة الشجون فتصبح
ولا حرج : « إنه » !

ما اكبره في وجودها ! ولكن ما يعني رفيقاتها منه الا فضولهن
في ان يعرفن هذا الواحد الذي جعل من العيدة المكبرة التي كانتها
انثى سخيفة مثلهن !

وما عاهن قائلات لو عرفن ان عنادها قد ترحزح ، منذ طالعها
الوجه الاسمر للمرة الاولى في البارة العامة ؟

يضحكن منها بلا شك ، وسيدركن انها مثلهن انسانة تيس ،
وتندله ! ألم يمينها اللوح ؟ وكانت تشيح بكبرياء وتغزى بقول
امها وابيها وعمتها بانها ليست كالأخريات لانها نسيج مختلف وعنصر

أحسن صفاء ، ومثلها تكون الفتيات .
ما كان أحقها !!

كانت المرة الأولى في سيارة الاجرة . دخل وجلس إلى جانبها ولم يلتفت إليها ، ولكنها رأت صورته في المرآة المثبتة أما السائق ، فأحببت لون شعره وشكل شفته الفلي ! ونزل هو من السيارة قبلها وذهبت هي إلى الكلية ونيت وجهه ..
وكانت الثانية في احد محال بيع المرطبات .. ظنت مر فدخلت بكتبها تطلب شيئاً ، وكان هناك ، ولم تلتفت إليه وشربت شرابها ودفعت للبائع بالثمن يقطعها من ورقة نقد كبيرة فاعتذر بعدم وجود « الفكة » ، فالتجيت للفتى لتبديل الورقة ؛ دفعت ثمن الشراب ! واعجبها انه لم يتطوع ليدفع الثمن عنها ، يفعل غيره من الرفقاء !

والمرة الثالثة كانت في دار الكتب ، قصديتها لتقرأ فصلاً مقرر من « العقد الفريد » ، فوجدته مكتباً على كتاب (لعله مثلها من طلب الآداب) وانصرفت إلى كتابها ولما رفعت رأسها ضبطته بحديق إلى وجهها . فلم تبسم له .. ولكن سرها ذلك منه .

وكانت الرابعة والخامسة والعاشر في دار الكتب ايضاً ، على غير موعد . وكانت قد انتهت من « العقد الفريد » .. ولكنها ظلت تذهب لتقرأ في « العقد الفريد » . وكانت تذهب في كل مرة وفي نفس شوق لأن تراه هناك ! فما ان تدخل وتطمئن إلى وجود رأسه فوق الكتاب حتى تنفخ بارتياح ، وتخف خطونها وهي تأخذ سبيلها إلى مكانها المختار .

ولم نفس مرة انها ليست كالأخريات، وانها كما تقول امها وابوها وعمتها العانس، نسيج خاص، فكانت تحببه تحبة وزينة، ثم تتصرف الى الكتاب انصرفاً قلقاً، وتقرأ فلا تفهم في يسر، وتنتفض بعصبية ثم تنظر الى الوجه الاسمر القريب نظرة مسروقة .

ورأته مرة يتأمل ويفلق كتابه، فتهضت وسارعت تسلم الكتاب الى قيم المكتبة لتبقيه الى الدرج ، ثم سمعت خطوه وراءها، واحست به قربها، وابنسم لها ونزلا السلم معاً واتجها معاً، ايضاً الى الحافلة، واستأذنها في الجلوس الى جوارها، وأصر على ان يدفع ثمن تذكرتها فعارضت ، ثم اسكتتها ابتسامة منه فيها بعض سخريه.. وفي الطريق عرف منها اسمها واسم المعهد الذي تنتسب اليه ، كما عرفت منه اسمه ، وعرفت ايضاً انه لم يكن طالباً كما توقعت .. ولقد احبت اسمه ..

كما سرها ألا يكون طالباً .. غراً ..

ولما افترقا .. احست ببعض قلق . شعرت بانها جاملته اكثر من اللازم، وخشيت ان تكون بعض عيون فضولية قد رأتها معه ولكنها في اعماقها استكانت الى شعور غريب .

وكثيراً ما رأته بعدها على غير موعد .. وكانت مؤمنة بان المصادفة وحدها هي صاحبة الدور .. فما هي بالحقيقة، ولا هو من الطائشين .. فالتعمد هنا شيء تبعده من الحباب ..

وقفت مرة الى كوة التذاكر في احدى دور العرض وابتاعت تذكرة ولما استدارت رأته خلفها ينتظر دوره فخفض لها رأسه في تحية ، وسارعت هي بالدخول واخذت مكانها قلقة مضطربة بعض

الشيء ، وما لبث ان جاء وجلس في المقعد المجاور .. وراحت تفكر في هذه الحركة .. هل تعتمدها ام هي المصادفة ؟ .. المصادفة المحض التي باتت من جانبها تؤمن انها أحكم من ان تكون مصادفات وقد تكررت .. اذن لم يحاول هذا الانسان ان يلاحقها ويهتم بها ؟ ان كان يفعل هذا عن قصد وتدبر ، فستصده في حزم وتلزمه حدوده ، فهي ليست كالاخرى . وهي غيرهن نبأ ونشأة .. وهي ذات مبادئ ما ارضيتها قط .. وهذه امور تنكرها عليها تربيتها وابوها وامها وعمتها . وهي .. وهي ، وتجاهلته فلم ترفع له عيناً ولكنها لم تغلك الا ان يفوس قلبها حين نهض الى بعض امره ، وما لبث ان عاد ببعض الحلوى وقدم لها فاعتذرت ولم يقل لها شيئاً .. وابتسم ابتسامة تشرق على قلماته السراء وأكلها - الليم - وحده .

وبدا العرض وتراحت الصور فأعطتها عيناً بلا فكر ، إذ شغلت عنها بهذا الذي الى جانبها .. لم جاء ؟ .. وما يريد منها ؟ .. لم لا يحاول ان يبدأها بالحديث ؟ .. تراها كانت فظة قليلة حظ من الذوق حين اعتذرت عن حلواه ؟ .. ما اسخفها ! وماذا لو اكلت وقد قبلت منه مرة ان يدفع ثمن تذكرة الحافلة ؟ انها متعارفان تماماً . او لا تعتبر تلك الجلسات في جو رزين تعبق منه رائحة الكتب كافية لان تطمئن الى صحبة هذا الفتى المهدب اللطيف ؟

اي شعور يثار فيها كلما كان منها قريباً ؟ .. اهو قلق ؟ .. اهو اضطراب ؟ .. اهو انتشاء ؟ .. اهو سرور أم غضب ؟ .. أم هي كلها .. مجتمعة ؟ ؟

واحسرت بعينه رغم العنة تحلقان في وجهها ، فحق قلبها في
عنف وما عادت تبين من الشاة الا ظلالاً .. اي وضع هذا ! ..
لو نادى فتصرخ فيه ، و .. احسرت بيده تقترب من يدها ،
واصابه تسع مشتاة الى اصابها .. فلم تسحبها .. احسرت بها
تنسر الى المنكأ .. ومع بطن يده ظاهر يدها مسحاً رفيقاً ، ثم
اخذ يدها بقبضه وشدة عليها شدة عينا ، ولبثا هكذا الى ان
اضئت القاعة .. وغازها ان تأتي النهاية سريعة هكذا .. فتخجل
من نفسها وتزدي ضعفها .. وتنصرف دون ان تنظر الى وجهه ..
وفي تلك الليلة انكرت مخدتها رأسها القلق ..
هل احبته ؟

لم يسبق لها ان احب ، فأنى لمثلها ان تعرف إذا كانت هذه
الحواس حساً ؟ ارألت إحدى صديقاتها المحربات فتحن
التشخيص وتسرى الافاضة .. ولكن لا .. ان الضعف لم يؤثر
عنها ، ولا تريد ان يفهم الناس انها كالأخربات .. ذات حماقات ..
لو صدقت روايات الحب فهو ذا مجلاوته وقلقه يلم بها ليلاً ونهاراً ،
ويتأثر بتفكيرها فتنى من حولها إلا حين تطالعها الوجوه ..
وتدعى الى الطعام فلا تصيب منه إلا القليل البسير .. وتخلو الى
الكتاب فلا ترى غير صورته .. وتزهد في شؤونها المختلفة وكانت
قبلاً بها حفيّة .. فهي إذن كالبطلات .. بطلات الافلام والروايات
ولو اختلف بطلها عن اولئك الذين نظرونا السبنا على حكايتهم ،
فلهؤلاء فراهة في اجسامهم ودقة في ملاحظهم ليست لفتاها .. فلو
جلست من قبل ، فلحياتها بعد ان عرفته حد ان قبل وبعد - لو

جلست من قبل واطلقت خيالها كما تفعل كل فتاة، وغثلت صورة لفتى احلامها لتنت له عينين اكثر سعة وانفاً احسن دقة ولاختارت له ذقناً ذات ثنية ولما شاته بمفأ في سمرة وجهه هكذا ..

ولكن باي حق تعتبره فتاها .. اقال هو ذلك لها؟ اتراه ينظر الى هذه الاشياء الصغيرة بنفس العين التي تبصرها بها؟؟ ولو تعقلت واطرحت اوهاهما لما بدا من ذلك كله شيء ذو خطر . اي غرابة في ان مجادتها فتى او يشتري لها مرة تذكرة وكثيرون غيره يفعلون هذا راضين لو سمحت ؟ . وماذا لو مت يده يدها في لحظة ضعف ؟ لا ، هذا وهم سمعت له بان يأخذ من نفسها اكثر مما يستحق فتضخم وضاق قلبها الصغير وأسمت المارد الذي خلقته حباً . وعزمت بينها وبين نفسها ألا تفصح له في قلبها ونفسها ، وان تشيع عنه شأن الفاضلات من الفتيات .. والا فأي فرق بينها وبين اية رعناء ؟

واستراحت الى عزم ما لبث ان تهاوى .. حين رآته بعد ايام .. في الشارع . وثار فيها احساسها العنيف حين اقبل وعلى شفتيه احلى ابتساماته يحببها ويدعوها حفيماً الى فنجان شاي .. فارتبكت وحارت فيما تقول ، ولكنها وجدت نفسها موقفة بارادته تأخذ مكانها في المقهى الهادي . الجليل لتجد امامها فنجان شاي لم تعرف له طعماً .. ولا شك انها ما فتعت فيها في تلك الجلسة الا لتقول اشياء سخيفة تقطع بها حبل الصمت وتصرف بها عيني الفتى عن عينيها ! وانتهيا من شرب الشاي وقاما .. لا الى الشارع الذي يؤدي بها الى دنيا الناس ، بل الى آخر بتقيم وينعطف حتى ينتهي بها الى

فضاء . وسارا .. لا صوت ولا نأمة الا وقع اقدامها على الحشائش ،
يده في يدها وفي قلبها احاسيس تضطرم . وودت لو يعود بها ولكنها
لم تطلب اليه ذلك .. وكأنها قرأ ما يجول في فكرها ، واحس بما
يضطرع في قلبها ، فجذبها اليه وقال : لا تخافيني فأنا احبك ..
ولم تقل شيئاً .. ما كان يوسمها ان تقول شيئاً . كانت شفتاه
على شفتيها دافقتين .. رفيقتين .

هل ذهبت بعيداً ؟ .

لا تدري ، ولا تريد ان تدري .. كل ما تعقله وتعيه وتشعره
احساره بالحياة جديد .. قد ولد فيها الساعة ...

حکایتیں

أخي ...

كنت اوثّر ان اظل شيئاً مجهولاً لديك . وان تظل بلا أخت
يعذبك وجودها فلا يذكّر اسمها امامك الا وتطأطي . رأسك استجاء
وتودها لو لم تكن ... غير انني أبصرت بك قبل ايام تذرّع حيناً
بخطوات مضطربة ، قلقه ، حيرى ، فعرفت وجهك القديم ، وقرأت
عليه - من بعيد - قصة توقعتها ، فادرّكت بان «انباتي» نمت اليك
وايقنت بان اللثيم «عوض» لم يدعك لنفسك فحكى لك حكايتي ..
ولعله «عيرك» فاسرف .. وجرح حاسيتك واثارك فصعد الدم الى
رأسك ولم تتم ليلتها وليالي بعدها .. وجعت اسبوعاً او اصابيع لتوفر
ثمن مدس تفرغه في رأسي عند اول لقاء .. وصدق حدسي
في ذلك كله حين رأيت اصابعك تنقبض على شيء في
جيبك ..

انه المدس بلا شك ..

أجل قدرت هذا كله لحظة ان تركت دار اليتام التي صرفت
فيها حداثتك ثم غادرنا رجلاً صغيراً ابيض النفس والقلب والنظرة ..
يسمى نعيمه سمي الكريم ، ثم شئت لنفسك سكناً يحتويك
واشياءك القليلة فلم نجد امامك الا زقاقنا القديم حيث عشنا يوم
كان والدنا على قيد الحياة . عندها توجت شراً وأدرّكت ان

«عوض» لن يدعك الا بعد ان يملأ رأسك بقصتي .. فللمحي كرامة
استعلت على عبث اللاهيات .. وهناك لطخة لا بد من ازالتها كما
انه لا بد من رواية يتلى بها الرجال وهم جلوس في المقهى حول
اقداح الشاي الاسود ، ولا بد للنسوة من حديث يدبر السنن
الثائرة كلما اطلن برؤوسهن من طاقة ، او تحلقن عند جارة ...
وحكاية دسمة كحكائني كفيّة بان تلي الحكي شهوراً بطولها ...
مكن يا اخي .. انا لا اشفق على نفسي من رصاصاتك الحقاء
فهي ترجيني من اشياء كثيرة .. وتضع نهاية لهذا الوجود الذي اتقياه
في كل لحظة .. ويريح اعصاباً قتلها العواطف القذرة الرخيصة التي
يستوي فيها كل حيوان عمرت جيبه بقروش شاء ان يشتري بها
ذكريات ليلة حمراء ..

أجل انا لا أشفق على نفسي بقدر ما أشفق عليك .. على العاطفة
الوحيدة النظيفة في قلبي .. على عمرك الغض تخنقه جدران العجن
الزجاجات .

ألم يزد عوض يا ترى شيئاً على « اقلها » ؟ ألم يحدثك بتجتنا
يوم مات أبونا عن صغيرين أنا وانت .. كنت انا في الرابعة عشرة
وكنت انت في الخامسة ... فبكته نسوة الحبي بدموع
التماسيح ، وشكرن الله ان راح زوجه قبله « فلم نشرب حسرته .. »
واجتمع الرجال على واجب الاموات .. ثم انفصوا عن رحمة
الاحياء ! اهل حكى لك كيف اقبل علي في اليوم التالي وكان
في نفسي شعور سابق بكرامته اذ حاول ان يقبلي عنوة ذات مرة ،
فشكوته لأبي فمضى اليه في مقباه وبصق في وجهه الكريه واشبعه

اهانة ، اقبل يعرض خدماته فرددته بحزم ورفضت يده الممدودة
بقروش ، وايت عليه ان يتخطى عتبة البيت !
اما حكي لك قصة فتاة ليس لها من يأخذ بيدها في كون
كبير موحش تخشى معه قدمها الصغيرة العثار في كل نقلة ؟ اذن
دعني احكيها . دعني ، فعق المتهم ان يقول شيئاً قبل ان تنتهي
عنقه الى جبل الرأي العام . كنا صفاراً يا اخي وليس لنا الا فقر
تنهش انيابه جدينا ، فتحركت ابحت عن عمل تقوى عليه يداي
الصغيرتان .. سألت ورجوت ووددت فانتهى امري الى معمل
حياكة قابلني صاحبه فقال : ارني يديك ، فمدتها ، فقال آه .. اصابع
رشيقة لا اشك في انك متحنين عملك ... اذهبي الى « كبرى
البنات » لتدلك على نوع العمل ، فان أحسنه كان لك مني قروش
خمس في اليوم .

واستدوت لأذهب الى « كبرى البنات » .. فسمعه يقول
اندرين بان لك وجهاً جميلاً يا بنت ؟ .. ولم اكن قبلها اعلم ان لي
وجهاً جميلاً ! ورأيتني بعدها وسط حشد من الفتيات كلهن نحيفات
حفاوات تقوست ظهورهن الطريئة على الانوال وراحت اصابعهن
تتحرك في اوتوماتيكية خالصة .

وقلدتهن فاحنت التقليد واستحقت القروش الخمسة وفوقها
ابتسامة من صاحب العمل الاكرش ، لم افهمها .

كنت اعمل طيلة النهار واطركتك في رعاية « ام محمود » الطيبة
الوحيدة في الحي ، ثم اوافيك ماء وفيدي خبز وجبن وزيتون وفي
قلبي لهفة وحنين ، فاسرع اليك لا يثنيني الا شبح عوض البغيض حين

يتصدى لي أحياناً في المنعطفات العتمة فأمطره بسباي، ثم اعدو نحني
مشاعر من حنق وخوف وتوجس .

واظهرت اجتهداً فققرت اجرتي في العمل من خسة الى ثمانية
ف عشرة ... واثار هذا حفيظة الفتيات فاطلقن السنين من ورائي،
واخالني سمعتن يقلن : «توقنا ذلك منذ ان جاءت .. ان لها وجهاً ابيض
مليحاً .. وعينين خضراوين .. الا ترونه يا كلبا بعينه ؟» واستهجت
حملتهن ولم ادر هل كان «المعلم» ، كما كنا نسميه ، يا كلني بعينه
على حد زعمهن ... كان يلاطفني ، فعزوت ملاطفته الى لون من
الحذب والاشفاق . واما الزيادة فقد كنت استحقها .. وفي ذات
يوم اقبل يتفقد العمل ويمجول بين صفوف العاملات .. فما ان بلغني
حتى ربت على كتفي وقال : « هلا لبث قليلاً بعد انصراف
العاملات .. فلي معك كلمة . »

وصرفت بقية نهاري أفكر فيما عسى يريده مني .. ولفتي
رعدة نزعته طأئنة قلبي . فلما حان وقت الانصراف حاولت ان
اتسل مع الخارجات . الا أنني ابصرت بالمعلم على الباب فاشار إليّ
بالانتظار وتكأأت .. وما ان خلا المكان حتى سحبتني من يدي
الى مكتبه ثم فتح درجاً اخرج منه زجاجة من العطر واسورة
من الحُرز الملون وقال : «هذه لك .. انني راض عن عملك .. فخذها»
ولم امد يدي ، فشدني هو اليه . غير انني قلصت كالقطة الصغيرة ،
ثم نفذت الى الطريق من خلال الباب المفتوح .. وفي قلبي خوف
طاغ من شيء غامض خفي ، وعلى المنعطف رأيت «عوض» يطالعي
بوجهه البفيض وابتهامته الصفراء ... ولعله كان ينتظرني فلما

استبطاني سأل العاملات عني ، فما ان رأياني حتى قال : « ترى لماذا
استبقاك المدير من دون الفتيات ..؟ هل ؟ لقد قدرت هذا يا .. »
واطلقها كلمة قدرة اهتز لها كياني الصغير ، فركضت اليك
مذعورة باكية .. فنظرتني انت بعيون حائرة ثم انفجرت تبكي
معي .. فناما جنباً الى جنب ، وقد شددت جسدك الصغير
اليّ كأنني احتسني بك من المعلم . من عوض . من الناس . من
الاحاسيس التي تعصف بقلبي .

ولم اقصد عملي في اليوم الثاني . اردت ان استشعر الأمن
ببقائي الى جانبك . ولكنني - وتحت إلحاف ام محمود التي راحت
تفسر عن سر امـاي عن الذهاب - وجدتي مكرهه على العودة .
فعدت ، ولحظني المعلم اذ دخل ، فابتسم ابتسامة ثعلبية ، وهز رأسه هزة
ذات معنى

وكانت له ممي في المساء « كلمة » وفي الاميات التي تلت
« كلمات » . وسمعت منه وعوداً بالاثواب ، بالعطور ، بالخلاوى ،
بكل ما من شأنه ان يدير رأس فتاة محرومة . ولكنني كنت
انفر من بقاتي معه . فيدق قلبي الصغير في جزع . ولا تطمئن
اليه نفسي قط . وكبرهته اكثر فأكثر حين مد الى خدي شفتين
شرهتين وراح يقبلني . غير مبال بصفعاني على وجهه الفليظ ..
حتى اذا افلقتني أسلمت ساقى للريح عازمة على الا اريه وجهي بعد
اليوم . وانقطعت ايماً ثم طأطأت رأسي وعدت .. اذ جمعنا .
حاولت ان ابحث لنفسي عن عمل آخر فالتحقت بخدمة اسرة ثم
تركتهما اثر صفعات انبالت علي من صاحبة البيت الجافية جزاء

كسري كويين .. دون ان اطالبها حتى بأجري على عملي لديها
اسبوعاً ! فلم يكن بد من عودتي .. الى الانوال !!

وطالت بيني وبين المعلم لعبة القظ والفار . ومرضت اعصابي
وأنهكها طول الملاحقة .. ثم وقعت الفريسة مرة .. لتخرج بعد
قليل ، اذ طردها النذل الى الشارع مطعونة الكرامة ، سليبة الالباء ،
رجلي ، حيري ، باكية ، محطبة .. تعصف بها النعمة وتلاحقها الزواية
الى كل مكان ..

ولم اتمكن في هذه المرة من العودة الى البيت ، ولا الى الحلي ،
اذ سبقتني اشاعات عوض ودفائه بجها مع اخباره هنا وهناك ..
ونحركات الشفاه لا لتعذر او تبرر .. او تطلب من الله سترأ ..
بل لتلعن وتنهش .

وهمت على وجهي يوماً واباماً .. وفي كل يوم يمر كان يموت
في نفسي ايمانني بعدل الحياة . ثم انتهى امري الى جحيم اسود يبتلع
في كل يوم ضحية ولا يفتأ يطلب مزيداً ..

هناك تعلمت ان اصبر بشريتي في بوتقة الحقد .. هناك تعلمت
ان اكره .. تعلمت ان انتقم .. وتعلمت اشياء واشياء ..
وصرت تاجرة !!

و كنت استفيق احياناً في غمرة هذا الحقد العظيم فاذا كرك
ويضعف قلبي فأبكى .. وأبعث من يائيني بنبأك فاعلم بانتهاء
أمرك الى احد الميائيم نتيجة رجاءات ام محمود وضغطها على مختار
الحلي ليفعل شيئاً لهذا الضائع الذي هو انت .. وعذبني شوقي مرة
فغزمت على ان اراك وحملت بعض الهدايا ، وما ان بلغت المكان

حتى وفقت حائرة امام الباب المغلق ، ولم ادر كيف ادخل ،
وماذا اقول ، ومن اطلب . فالتقيت باللقافة التي احلها من النافذة ثم
عدت لا ألوي على شيء ..

وبعدها انقطعت بين عالمنا الاسباب .. وأظنك سألت عني
اولاً وثانياً ، واشتقت اليّ قليلاً وكثيراً .. ولما لم يجدك الشوق ،
ثامت ذكراي في نفسك ثم تلاشت صورتي في خاطرك مع كثر
الايام . فاعذرك فقد كنت صغيراً .

اما أنا الصغيرة « الكبيرة » فلم انك وظللت أتقط اخبارك .
فجبي اباك هو الصلة الوحيدة بيني وبين عالم العواطف . وما عدا
ذلك فمواصف بغض تأكل قلبي أكلاً ..

مرة ثانية اقول انني اسفقت عليك ، بعد ان صرت كبيراً ، ان
تبيع حياتك رخيصة .. ومرة ثانية اقول انني اعيدك من صحبة
دني . كم عوض كرهته مع براءة طفولي . وترفعت عنه مع
جناحي المهيض ..

واستعلت عليه في حماي .. حين طرق بابي مرة مع الطارقين .
فاغلبت في وجهه بابي المفتوح .. وشيعته بسيل من شتائي .

وهذا المديس الاخرق خذه وبعه يا صغيري .. واشتر لنفسك
قيصاً يتر اكتافك العارية . بدلاً من هذا القميص الممزق الذي
لم تنزعه عن جسمك طيلة الاسبوعين اللذين دأبت خلالها على مراقبة
زقاقنا ، منذ ان جرتك فكرة الانتقام .. الى اختك !

إلى حين

- لا تنهضي سعاد . مكانك ظلي ، فسأتيك بالافطار الى الفراش .
وكانت سعاد تنحي عنها الغطاء حين امتدت يد عمها تمنعها من
ذلك . « ظلي ، ظلي . سمعتك بالامس تسعين واخشى عليك من
زكام .. » ولم يكن بسعاد سعال ذو خطر ، يستدعي ان ترفق
بها عمها الى حد ان تحلها بالافطار الى فراشها .. ولكنها
ادركت ما وراء الحكاية ، فعادت وتمذدت في فراشها في تراخ ،
وابدست ابتسامة خيثة ، وراحت تفكر في هذا الانقلاب العاطفي
الذي لم تعرفه إلا قبل مدة وجيزة .. فقبل ذلك كان عليها ان
تقوم مع الفجر وتسمى على قدميها الى المطبخ ، تجهز القهوة
والأفطار لعمتها ولها .. واذا حدث ونامت دقائق اكثر من
المعتاد ، فهناك صوت العمة الكبيرة يلعلع :

الم تسيظ بنت الباشا ؟ ما شاء الله ! تراها ستظل نائمة الى
الظهيرة ؟ ومن يكفئ الشرفة ويبقي الزرع ؟ انا ؟

فتنهض سعاد قبل ان تقفز شتمة الى لان عمها .. وتسمى
خفية الى شؤون البيت .. الا شكراً لفهي - ابن الجيران
وشكراً اكثر لحادتهم التي قدمت بالامس تقضي شأناً ليدتها
فلقيت من العمتين حفاوة ، فلما تكون في طبعها . وفي نوبة كرم
اتيح للخادمة ان تذوق قطعة من التارنج المسكّر ، وان تشرب

فتجان فهو ينطلق بعده لسانها يكشف من امور مخدوميهب
اشياء .. فده فهمي « ابن الاسرة الكبير الذي قال « الشهادة » هذا
العام ولد كله ذوق وانسانية . وليلى ، أخته ، فتاة مدللة لا هم لها
إلا ان تقرأ قصصاً فرنسية وتلعب على البيان وتختلف مع صواحبها
الى البيت .. اما الام .. ام فهمي - فبداة تعيش على مهل ..
خادمة وسائق وطباخ .. مرفهة يحبل لها افطارها الى الفراش ..
وتذهب الخادمة وكلامها يطن في اذن العمتين . وتنظر كل
منها للآخرى نظرة لا يفهما غيرهما ..

وفي القد .. محل طعام سعاد .. الى فراشها ! بقي ان
نعرف سر هذا الدليل المفاجيء .. الذي لم تعتده اليتية التي
ربيت في كنف عمتين كهنتين .. حناً ، لبب او اكثير
اعتقدت العمتان ان فهمي - الابن الاكبر لعائلة الطبيب الكبير التي
قطنت مؤخراً بجوارهم -- « له خاطر » في سعاد ..

وقفت شفيقة - العمة الكبرى - مرة على الشرفة فرأت ابنة
اخيا تبادل شاباً ، يقف على الشرفة المجاورة ، الابتسام .. فهتت بان
تبادر الفتاة بزعة نجمد معها البسة على شفتيها لولا انها تذكرت
ان الفتى يقف على شرفة بيت الطبيب الثري الوجيه ذي السيارة
التي يقودها سائق .. وساكن الفيلا التي يرمقها المارة بحمد كثير ..
فارتسم على فمها شيء بحار بين الابتسام والتكثير .. لتردد في
نفس العمة . انجعلها ابتساماً خالصاً أم تستبدل بها تكثيرة تقليدية
يفهم منها الاثنان ان العمة لا تشجع الوقاحة .. ولا تحبها ..
وخطبتها في موقف ابتسامي ، مرة اخرى . وهنا كان لا بد

من محضر استجواب مستعجل للفتاة تذاوبه العتان ..
كيف عرفت الولد ؟

- انه يراني على الشرفة ، وقابلني في الدرب مرة او مرتين .
- هل تحدثنا ؟

وسعت الفتاة لتهرب من الجواب ولكن «زغرة» من العمة
الكبيرة فكت لـانها .

فقلت : « نعم »

- وماذا قال يا ترى ..

.. سألني كيف حال عمّيك !

وتنظر العتان الواحدة منها للأخرى وتقولان في صوت معاً ،

- اقال هذا حقاً ؟ ابن ناس .. ابن ناس .. وماذا ايضاً .

.. مرة " رأني في الترام فدفعت عني ثمن التذكرة ...

وتقطب شفقة ما بين حاجبيها وتضطجع الجذ وتقول : « طيب

قومي الى امرك » .

وتخلو شفقة الى انيسة ، فتخلبان التطريز الذي كان في ايديها

لتسأل الصغرى اختها .

.. فكرك ؟ !

- نعم فكري .. ولم لا ؟ هي وشطارتها .. اهو اكبر من

ان يحب سعاد ثم يتزوجها ؟ أفي الحلي من هي احلى ؟ . قد تكون

فقيرة بالنسبة له ولكن الفقر ليس عيباً .. فأمر فهي نفسها ... كما

سمعت .. كانت ممرضة في عيادة زوجها ، وبناتنا مهذبة لبقة بنت بيت

« تربية راهبات » . وبيت « ابي فارس » ما طلعت منه واحدة

قال الناس فيها ما بشين . المسألة لا تحتاج لأكثر من بعض المسيرة
واللباقة والتدبير .

— من الغد نقوم انا وانت بزيارة لأم الواد ...

— ولكن .

— ولكن ماذا؟؟ تريدان ان تقولي اننا لا نعرفها؟ وماذا؟

نتعرف عليها . وكيف نتعارف الناس في الطرقات؟ في الاسواق؟
لا عليك .. السعي للحلال ما كان حراماً في شريعة .. هل تريدان
ان يقول الناس ان بنات « ابي فارس » يبقين عوانس ما عشن ..
او حتى لو تزوجن فعلى كبر وهن عجائز؟ .. لا تفتحي فاك ،
أعرف ما ستقولين . تعنين أنك بقيت عانساً بارادتك؟ لا ستي
لا .. من دق بابك غير إسحق بائع السمجق وكان أصمّ واحدى
ساقيه في القبر؟ اسكتي ، اسكتي . انا ادرى منك بهذه الامور .
فما عرفت من دنياك الا القماش والحیوط . من الغد كما قلت نزور
أم فهمي ونشجعها وابنتها على زيارتنا .

وسكتت انبة .. فما فرحت في اعوامها الخمين برغبة لها
تفقد شفقة في الوجود . نشأتا معا وتعلمتا المهنة وعرفتها الناس
مطرزتين تشدان القماش على الانوال فيخرج من بين اناملها المدربة
مخدرات ومفارش تزدان بها بيوت العرائس ..

وكانت شفقة تقابل الزبائن .. وتعمد الصفقات وتقبض الاجرة
ولا تنفقها الا بحساب ، فعزیز علیها فراق القرش ، والقروش
— كل القروش — تنفع في الايام السود .. ومستقبل الأخمين
ليس بياضاً خالصاً بعد ان تحف حدة بصرهما .. وينقطع مصدر

ورزقها الوحيد .. ولم تترح انبة من سيطرة اختها الا حين تزوجت تلك ولكنه كان زواجاً قصيراً كليالي الصيف .. مات الزوج العجوز ولم ينجب ابناً فعادت شقيقة الى شأنها في البيت والانوال والتحكم في انبة ..

ونشت مشيئة اكبر الثنتين .. فزارتا ام فهمي ولم تصحبا سعاد لأمر في نفس الكبرى .. وعادتا بعد ساعة وقد انكش العالم في عيونهما واختصرت شؤونته فهو ليس اكثر من عائلة فهمي .. امه ، ابيه ، اخته ، بيتهم المترف ، فرش الوثير ، لم تفرغا من التحدث بهذا كله طيلة سهرة امتدت الى ما بعد منتصف الليل ، واستفرقها الحديث حتى نبتا ان النور الكهربائي بحجاب .

وتسمع سعاد وتدرك بفريرة الانثى ان عنما تنوي امرأ وقد اخذت ما كان بينها وبين الفتى من ابتسام بريء ونحيات في الطريق مأخذ جد خالص .. ولكنها اطبقت فمها تنتظر النتيجة .. او اطبقته استكانة لهذا الدلال الذي اخصتها به .. فأغيت من اكثر الراجبات اليئسة .. فمبح البلاط - كما صار معلوماً لدى العتبن مؤخرآ - ينال من طراوة يديها ، وتقشير البصل ليس بالعمل المستحب لمثاقفة .. وكنس الشرفة - والشرفة المقابلة بيت الجيران بالذات - لا يليق بواحدة تطعم او تطعم عمتها .. في ارستقراطي كفهومي ..

*

.. سعاد لم لا تعزمين على الولد بفنجان قهوة ؟
وتسعي الفتاة . كيف تفعل .. بل كيف تخلق المناسبة ؟

فلا نجيب ويحمر خداه . فتقول عمتها ملاطفة :

.. هـ لـ قد خجلت .. لا بأس ، سأدعوه انا ..

ووافتها المناسبة . كانت تـير وسعاد في الطريق فمر بها صدقة وحيًا بصوت خفيض ، ولكن شقيقة رأت عين الواجب ألا تمر به دون بـجامة فاستهـلته لتـأله عن امه وابيه وصحة المدموزيل الحـبوبة ... اخته .. وتبـسطت أكثر فأكثر عما يفعل في العطلة .. وقالت نحن جيرة ويسرنا ان « تحطفـ رجلك صوبنا » فانت فتى مـهذب ابن ناس .. ونحن والماما « صـحة » ..

وشكرها بـرقة وما انتهت حتى كانوا قد بلغوا البيت ، فألحت عليه بالدخول فدخل بعد ان ألقى نظرة على بيتهم ليرى ان كان هناك من يرقبه .. وسرعان ما حضرت القهوة والحلوى والسـجائر الامريكية التي هرولت انيسة تبـناعها من اقرب حـائوت .. ومكث الفتى ساعة ولما قام شيعته العـمتان الى نهاية السلم وكررتا عليه ان « يعيدها » .

اما سعاد فقد جلست بـقلق تفكر فيما عسى ان يقول الفتى في عمتها . ويقطع عليها تفكيرها صوت عمتها وقد عادت الى التـساعة تأخذها بـعتاب ناعم .. إذ لم تـسير الفتى كاللـازم .. وظلت ساكنة بصورة قد يظن معها فهمي ان زيارته غير مرغوبة .. او انها لا تفهم كيف نحكي كلمتين على بعضها .. وتتطوع شقيقة باعطائها بعض النصائح ثم تـتدبر الى انيسة وتهمس : « الاترين .. صهرنا .. فتى لطيفاً ؟ »

وتلعب الصدف دوراً في احلام العـمتين إذ تأتي اخت فهمي

مرة توصيها بتطريز ثوب .. فتبشان في وجهها كثيراً وتتطوعان بتعليمها التطريز ولتقم هي بنقش الثوب بنفسها ..

وترحب ليلى بالعرض ، فهذه تجربة جديدة تختلف عما ألفت في حياتها الرضية من مشاغل هينة .. وتأخذ بالتردد يوماً عليها وفي يدها قماشها وابرتها ، ومن ثم تنشأ بينها وبين سعاد ألفة تشجعها العمشان ، وتصبح سعاد صديقة لليلى فتدعوها الى حفلة تقيمها في عيد ميلادها .. ولا تذهب سعاد فارغة اليد إذ تحملها شقيقة ستارة الوانها من الوان الربيع .. وكان أدعى الى فرحة سعاد ان كانت عمها بعيدة النظر ، ففتحت كبتها على سعة وابتاعت لها ثوباً وحذاء جديدين . فعاد يجب ان تبدو انيقة كأحسن المدعوات ، ناعمة يفتن بها من يراها . وهذه مناسبة يحضرها فهي وسيراها ويتعادتان و .. من يدري !

وتمضي سعاد الى الحفلة مخرجة بعض الشيء ، فما سبق لها ان عرفت هذا اللون من الفتيات والشبان . وتلاحظها ليلى فتخف اليها تلاحظها . وما لبثت ان ازدغمت في الجو حين دارت انغام الرقص وعلا صخب الشباب وقضى صياحهم على جو التكاف الذي يسود الحفلات في مبتدأها حين لا يكون للناس هم الا ان يزينا كل واحد بالقبراط وبنظرات تتلون اعجاباً أو سخرية أو رضى ...

وفي تلك الآونة بالذات كانت شقيقة وابنة تطلان من الشرفة ترقبان المدعويين - نغني المدعوات . وتساءلان عن الوجوه الغريبة من تكون .. ولا ترتاح شقيقة للعدد الكبير من المدعوات فتقول : « صاحبات ايلي .. كثيرات .. »

وتفهم ابنة ما تعنيه اختها فتقول : « اطمئي .. ليس فيهن

من هي أحلى من « سعادنا .. »

وتظلال في موضعها من الشرفة يأكلها القلق حتى تعود سعاد
تقص أخبار الحفلة وترد على أسئلة أنثاء عليها كاللطر ..

— هل سلت على أم فهي ؟ هل رقصت مع فهمي .. ماذا
قالت ليلى عن ثوبك ؟ على فكرة ، من تكون الفناة الثراء ذات
الثوب الأخضر ؟ ألم تتعرفي عليها ؟ لا بد أن نأل .. أنها
متفطرة ، أليس كذلك ؟ لقد حزننا هذا من نظرة .. تقولين
بان ليلى أوصتك بان ترفعي شمرك دائماً كما فعلت اليوم ؟
أرأيت ؟ هذه نصيحتنا .. نحن ادرى منك بذوق « بذت عمك »
فاحتفظي بهذه التريجة ..

شقيقة في قلق حتى تعرف الثراء المتفطرة ذات الثوب
الأخضر من تكون .. وعرفتها وعرفت ان لها اماً تتردد كثيراً
على بيت « الدكتور » .. ويزعجها الامر فأني حق لهذه ان
تصحب ابنتها بين يوم ويوم .. انها ادرى بنية هؤلاء النسوة اللواتي
لا هم لهن إلا اصطيات الأزواج لبناتهن .. ولكن هذا تطاول
يجب ألا يسبح لها به .. « فهي » مبال الى سعاد بلا شك ..
وكل الظواهر تقطع بهذا .. ييسم لها من الشرفة ، ويجاكيها في
الدرب ، واعطاها مرة كتاباً .. واخته تحبها وتؤثرها فتدعوها الى
حفلات الأسرة .. ولقد شهدت الخادم بان ليلى كثيراً ما تطري
سعاد لأمرها ..

فنية الجماعة واضحة كالنهار .. فما معنى ان تعترضه هذه المرأة
وبنتها ؟ لا . ستصبر شقيقة عليها مدة فان لم « تقطع رجلها » فلا
بد من ان تذهب اليها في دارها تنهاها عن هذا الشطط وتبصرها

بموقف فهمي من سعاد ..

أية نوبة هؤلاء ..

ويظل القلق يأكل قلب العتين .. سببا شفيقة .. ان الفتى لم يتقدم ، فنى يفعل يا ترى .. لا بد انه فاعل قريباً .. لعله الآن مشغول بالتفكير في مستقبله .. إذ كيف يخاطب بنات الناس قبل ان يركن الى شيء ؟ .

لا بد من حركة .. وأشد ما تحثيان مناورة تقوم بها ام و الفتاة الاخرى ، فتلف الصبي ولا تبقى لسعاد إلا الحمرة . وهكذا تظل شفيقة ، وتظل انية ، وتظل سعاد في هواجسهن . العتان تفرشان بالآمال درباً للصبر العزيز ، والفتاة حيادية الشعور ، فما بينها وبين الفتى لا يدفعها لان تطمح مطمح صحتها ، تنام على الدلال مستكينة رقب ختام الرواية .. وجاءت النهاية يوماً ..

استيقظت العتان مرة على صوت الجيران يودعون فتاهم المسافر الى امريكا للدراسة ..

واستيقظت سعاد بعد ليلة حامت فيها بفهمي فهي في احلامها اجراً منها في يقظتها على بناء القصور .. استيقظت على صوت شفيقة القديم يصيح :

.. ألم تستيقظ بنت الباشا ؟ تراها ستظل نائمة الى الظهيرة ؟ ومن يكفن الشرفة ويبقي أصغر الزرع .. ؟ انا ؟

الشیخ مبروک

اطل عليّ جاري بوجهه العتيق وقال: «اليس عجيباً ان لا نرى
الشيخ مبروك لا بام؟» قلت وانا لم ارفع يدي عن شعر الزبون
الذي عملت فيه مقصي :
.. لقد افقدته انا ايضاً ولا ادري ماذا ألمّ به . لعله
مريض .

.. عجيب ، ظننت الشيخ مبروك ، لا يمرض .

.. ولم ؟ اليس يبشر مثلي ومثلك ؟

.. بلى ولكن ...

.. ولكن لماذا ؟

.. ولم يجد جاري ما يقوله ، فاستدار ، وتركني افكر في الشيخ
مبروك الذي لم يزرتا مؤخراً ، وهو الذي لم يعودنا التخلف
قط اذ دأب على المرور بنا يوماً منذ عشرة اعوام ولم يعفنا الا في
ايام العطل والاعباد .

كان الشيخ مبروك شخصية فيها الكثير من وجوه القرابة ..
وكان عهدي به منذ عملت ' صياً في دكان الحلاق التي آل اليّ امرها
فيما بعد كما هي العادة ، وكان يلذ لي كثيراً ان تأمل قامته
الفارعة ووجهه القيم الملتحي وتلك المسبحة الطويلة السوداء
امتدلية من يمينه ، فتروح عيناى تنتقلان من عمامته الحائلة اللون الى

جلابه القديم الذي كان أبداً نظيفاً الى خفين ينتعلهما وبشي بهما
مشية الخفيفة .

وَم اكن اعلم في بادىء الامر سر زياراته اليومية المنتظمة
فقد كان لا يجلس ولا يقبأطاً . يدخل فيلقي السلام بصوت خفيض
ثم تمتد اليه يد معلمي بقرش واحد يلقيه هذا في جيبه ثم ينصرف عنا
الى جارنا، ومن ثم الى صف طويل من حوانيت الحلاقين والمنجدين
وباعة الملابس القديمة يجمع منهم القروش . وحرث في ماهية
الشيخ مبروك واستثار فضولي . أهو شعاذ ؟ كلا ، ليست له هيئة
الشعاذين ولا نفسيتهم ولا تكلفهم لما يتدر العطف ويحرك
الحنة . . فيه نظافة دائمة ، وفيه كبرياء تلجم لسانه فلا يفوه بكلمة
الشكر الا بصوت خفيض .

ولم يدعونه « الشيخ » ؟ . ما اكثر المتشخبين ، ولكنه ايضاً
لا يشبههم . عهدي هؤلاء يجلسون فيتلون من آيات الكتاب الكريم
ما تيسر . ثم يشربون من القهوة قدحاً او اثنين ويقبضون بعدها
ما تيسر ايضاً . وهم يدعون للمعطي بان يرتد له قرشه قروشاً وان
يوسع الله له في الرزق لتنبط كفه بالعطايا . اجل ليس الشيخ
مبروك رغم العمة واللقب واحداً من هؤلاء . . . وهو في شكله
العمومي اشد ما يكون شهاً بالمغاربة الذين يتعاطون حرفة فتح
البخت واشياء اخرى الى جانبها . اذن لم يواظب الرجل على هذه
الزيارات اليومية ولم يمنحه معلمي وجيرانه قروشهم راضين ؟
واستعيت ان اسأل معلمي ، وكان الاولى ان ادرك ان الثروة
من مستلزمات الصنعة فلا استحيي ولا يقف على لساني السؤال .

ولكنني تشجعت يوماً فقال معلمي : « والله يا ابني لا ادري ما
اقول . نحن نقبارك بالرجل ففي طلعتة بمن وبركة ينزلان على المحل .
لقد اسمناه مبروكاً فضاع اسمه القديم وقد يكون محمداً او علياً
او خيماً . ولكن ما علينا ، مبروك هو الاسم الذي اصطلعنا على
مناداته به . اما الشيخ فهو من منتهات الجبة والعمة والمسبحة .
هو لا يطلب قط ولا ينقل علينا ، فاذا اعطيناه اخذ واذا
امكنا انصرف غير لائمه . . ان في وجهه قناعة غريبة فكأن
الدنيا لديه ليست اكثر من لقمة تقيم الاود . وحين مجد ياوي
اليه اذا جن الليل . وسألته وقد شافني امر هذا الانسان : « اما من
زوج له وابناء ؟ »

وفهقه معلمي فهتفه اعترت معها عروق رقبة وقال : « زوجة ؟
زوجة للشيخ مبروك ؟ وهو الذي لا تذكر امامه النسوة الا
ويطرق في اعراض ؟ لا يا ابني ، هذا رجل زعد في دنياه ليشتري
آخرته . » وكنت معلمي حين دخل زبون رمى بنفسه على الكرسي
الحشن واسلم رأسه للمقنن ، وفتح اذنين كبيرتين لحكايات معلمي .
وظلمت اعمل في دكان الحلاق او صالون السرور والانشرائح
كما كان صاحبه يسميه ، حين . ولا اذكر ان وجه الشيخ مبروك
غاب عنا خلافاً يوماً واحداً الا في ايام التعطيل .

وكنت اترقب مجيئه بشوق . يدخل فيحي ويقبض وينصرف
لا يلوي على شيء . . . كدأ به منذ دخلت الكار صغيراً الى ان صار
اني امر صالون السرور والانشرائح بعد ان مات معلمي .
اذن فليس بالكثير لو افتقدت الشيخ مبروك وعراي فلتق

خفيف لا تقطاعه اسبوعين بكاملها . ولكنه جاء بعدها . جاء وكان الوقت عصراً فحياً واقترّب مني ، فمدت اليه يدي بالقرش ، ولكنه ابتسم ابتسامة حائرة بعدها ، قلما رأيتها على وجهه وقال : « لا ، لم اجي . هذا .. ولا قروش بعد اليوم . »

ولم افهم ما يعني اذ لم اسمعه قبلاً يتفوه بهذا القدر من الكلام دفعة واحدة فقلت : « لم ترك لأيام .. » قال : « كنت مشغولاً ، ثم غيّر نغمة صوته وقال : « الا تخلق لي حيتي ؟ » قلت : « اخلق لحيتك ؟ »

– اجل لحيتي . انهم يريدونني حليقاً كالاقندية . وضحك ضحكة خلتها تخرج من بطنه .

– من هم ؟ عنم تتكلم ؟

– انها امرأة سأ تزوجها .

– انت تزوج يا شيخ مبروك ؟ وهل تفعلها ؟

وراح ينسب ابتسامة كشفت عن صفين من الاسنان البيضاء . وقال : مكتوب ..

ووقفت احدى الى وجهه . لم اصدق عيني ولا اذني وقلت

الرجل يهذي . فقال وهو يستعيني :

– انت لا تصدقني يا حسن .. لعلك تظن بي الجنون .

قلت : « تماماً . أتمرح يا شيخ ؟ »

– لا والله بل سأ تزوج .

– من ؟

... من واحدة لا تعرفها . اما انا فمعرفتي به قديمة . كانت فتاة صغيرة

وكننت احبها ولما شئت ان اتزوجها، ابى عليّ ابوها ذلك واعطاها لابن اخيه . وكان رفضه صدمة لم احتملها ، فهبت على وجهي كالصعاليك. وشعرت بانني رجل لا صلة له بالناس او الحياة ففشت كما عرفتني .

وسكت مبروك قليلاً وبلى شقيقه بلسانه وقال: «دخلتني نيتي ومات حبها في قلبي، الى ان رأيتها قبل شهر من الزمن بعد ان عرفت ان زوجها قد مات وترك لها طفلة، وشعرت باحسن بانني لا زلت احبها ذلك الحب الذي لم يعش سواه في نفسي ، فما رفعت قدمي عن العتبة قبل ان اعرض عليها الزواج . وقبلت بالطبع اذ انها ستجد في حمايتي ما يعصمها عن التشرّد . ولا بد لي من عمل الآن . سأكون صاحب عيال . هذه هي الحكاية يا صاحبي ..

مالك لا تقص لي لحيتي ؟ كف اعمل بها ؟ »

قلت وانا بين مكذب عيني واذني ومصدقهما : «غريب» ... ولم ازد بل حملت الموسى وراحت لحية الشيخ مبروك تتناثر امامي على الارض سوداء كريش الغراب. وشعرت وانا ازيل عنه لحيته بانني امسح عنه الاسطورة .. اسطورة البركة .

عقب سيجارة

نظر محمود الى زوجته الماخض وقد ارتثت على حشية رقيقة
برزت من ثقبها تنف من القطن الأغبر والتحت بغطاء لم يبرز
منه الا وجهها المتقلص الذي انعقدت حبات العرق على صفحته
السمراء .

- هل اتادي أمك ؟

واجابته بصوت أوهه الألم... « اجل ! نادها ، فما حال الساعة
بعيدة ... ودعها تدعو الحاجة نفيسة في طريقها اليّ » .
- حناً .

- محمود !

- نعم .

- مدي يدك ، الى العلاقة ، واعط الولد كسرة يأكلها ،
بلتها بالماء أولاً ، فلا تخرج ييوستها زورده حين ازدرادها ..
وتطاول محمود الى الكفة ، وتقبضت اصابعه على الرغيف الباقي ،
فاقتطع منه كسرة دفعها الى الصغير بعد ان قضى منها قطعة راح
يلوكها وهو يسأل : « هل من حاجة اخرى » .

- اجل يا محمود ، بعض الماء الساخن .

- املك نبت ان ليس هنالك قطرة من البترول في

البوموس . فكيف يشتعل ؟

.. ليس امامي الا القرآن اقصد واسأله بضع جمرات .
- دع ذلك الى حين ، وانطلق انت لمناداة أمي ... انت
الأم يقتلني .

- ولكن حين لم يعد بعد .. فهو لم يشبع هوأ مع ابناء
الدروب . انني ذاهب فهل تريدن شيئاً بعد ؟
- لا .

ونفذ محمود من الباب قبل ان يسمع هذه الـ « لا » . ولكنه
قدّر ان تقولها اذ خلت « نعم » طريقها الى شفتي زوجه منذ
صارت الكلمة مع املاقهم عقياً لا تلد .

انها جائعة تعب ، موهنة القوى لا شك في ذلك وهو ايضاً .
مثلياً وكذلك « ولداهما » وسينضم الى الزمرة واحد جديد
ليس لديهم له الا ثدي جاف وفاقة مستحكمة . فما كان اغناه عن
هذه الدنيا وأغنى والديه عن فهم جديد يريد ...

ويتأوه محمود ويمر باصابعه على عيني تراقص امامها الظلال
وكأنه يحملها وزر ما يعاينه . لقد كانتا حادتي البصر قبل ان
يزورها الرمد ويختلف فيها ضعفاً زاد منه الاجهاد حتى حرمه
نور عينيه الا بصيصاً .

وادی به ذلك الى التخلي عن عمله منذ سحبت السلطات رخصة
قيادة السيارة التي يملكها ، فدفع بيارته الى شريك اساء استغلال
الشركة فضاء السيارة على اسباب يصطنعها . عشرة جنيهات ثمن قطعة
مكسورة ، وخمسون لا بدال عجل مهتوي ، ... و ، و . وانتهت
الصفقة ببيع السيارة ليخرج من العملية بعشرين جنيهاً كانت آخر

عنده بدنيا الجنيهاات .

وتأوه محمود ثم ففز فكره الى زوجه ، ففد السير يطوي الدروب
التي يعرفها ويميزها وغم العتمة التي تعكر في الدروب والازقة
مبكرة اذ تشابكت الدور وتكاثفت الاسطحة فما تسح للشمس
بمنفذ .

وطواها جميعاً فما يتمهل الا لتبلى خياشبه من رائحة خبز
ير به حامل ، او سمك يقلى فتسرب رائحته من باب مفتوح .
وانتهى ميره الى باب لا يخطئه فشد حبلاً ورفع المزلاج فانفتح
الباب ، وتنهج بصوت مسروع فخرجت له ام زوجه متنقبة ،
فأنهى اليها الامر وقدمه لم تتخط العتبة ، ثم قفل عانداً بعد ان
أخذ منها وعداً باللاحاق به بعد ان تأثر .

ومشى مسرعاً ليوافي زوجة تعذب ، وحياة جديدة نشق
طريقها ، وصغيراً ثانياً يخلق ولا يفقه شيئاً بما يدور حوله .
ومشى محمود المسافة بين البيتين الا اقلها قبل ان يعترضه صغير
يجذبه من سترته ويقول :

- انت ابو حنين ؟

- أجل ما بك ؟

- لقد اخذوا حنين ، اخذه الشرطي الى المركز اذ رآه

يجمع اعقاب السجائر .

- وما له وما الاعقاب يجمعها ؟

- يعطيها لبائع الخلاوة لقاء قطعة صغيرة من الهريسة (إن

حين لا يعرف كيف يشتغل) . اعقاب كثيرة مقابل هريسة

بحجم حبة الترمس . هل ... هل آتي معك ادلك على الفم ؟
ومسح محمود عرقه المتصبب وقد احتار بين التصديق
والكذب ، ولكنه لم يقرأ في عيني الفتى الا جداً فقال : « تعال
قاتل الله الأولاد ، هذه تعاليمكم يا مناكيد . اقد كان حين قبل
ان تأتي الناحية « اعقل من فتاة »

.. من هم المناكيد ؟

.. انت وارتاك .

— انني لا اجمع الاعقاب ، فلي أم تبيع الترمس وتعطيني ما اشاء ..
.. كلكم مفسود . لعنتم جميعاً .
.. لم تبيني ؟ لن آتي معك اذن .
.. تعال لعنة الله علي انا .

ومشى محمود هرواً وراء دليله الصغير في حارات متعرجة حتى
انتهوا الى طريق لا يزال اهله يصلون اسبابهم باسباب النهار ، قطعاً
منه خطوات ثم وقف الصغير ومسح وجهه بكفه ورفع خصلة
الشعر المتدلّية على جبينه وقال : « ادخل وحدك يا عم ، اما انا
فدعني اهرب قبل ان تمتد الي يد العكري . »

وترث محمود قبل ان يأنس في نفسه الجرأة على الولوج . ولكنه
دخل اخيراً وراح ينقل بصره الكليل بين هذه النماذج الكثيرة التي
ارتسمت على صفحات وجوهها خطوطاً غبراء وامامها شرطي يلوح
بصوته كلما سمع همهمة ، ويفتل شاربيه باصابع غليظة .

ولا بدري كم طالت به الوقفة قبل ان يستفيق الجندي فيمشي
بانجاهه ويسأله بتعاضم :

- من تكون يا هذا ؟

- لي ولد بين هؤلاء .

- حيلة قديمة ..

- ماذا تعني ..

- لعلك احد هؤلاء الذي يدعون ابوة الاولاد ثم يتخذونهم
لاغراض السلب والنهب وقطع الطريق .. انني ادرى الناس
بالاعيبكم ..

- لا علاقة لي بمن تعني .. اقسم ..

- نحن في غنى عن قلبك ، قلت لك انتصرف .. والا ..

ولم يتبها الشرطي اذ وقفت امام باب المركز سيارة قفز منها
ضابط دخل الى غرفة جنينة دون ان يلتفت ار يرد حتى تحية
الشرطي . وابتلعه الغرفة ثم خرج منها بعد ساعة يتعرض هذا
الصف البائس من الصغار ويقول .. « هيه ، صيد النهار .. هل
اتصلت بفقش الشؤون الاجتماعية ؟ ومن هذا الرجل الواقف .. ؟
متبول هو الآخر ؟ » ونظر اليه الضابط متفحصاً ثم انفرجت
شفته في دهشة وقال :

- محمود ، يا جاري القديم ، ماذا تفعل هنا .. ؟

- صفوان ؟

- اجل صفوان .. لعلك لم تتوقع ان تراني ضابطاً .. ايه ،

انها الدنيا ..

- اي والله .. صفوان ستحدث فيما بعد .. هلا سمحت لي

بولدي ، فانا في عجلة من امري .. اؤكد لك انه ليس من

زمرة هؤلاء .

- اي ولد ؟

- ذاك .

ويلتفت الضابط الى الجندي يسأله عن سبب قبضه على الصبي فيقول ذاك بأنه وآه يجمع اعقاب السجائر .. ومصير جامعي الاعقاب مرسوم معروف .. لصوص يظهرون كالحفافيش كلما جن الليل ليعيشوا فساداً في ارجاء المدينة الغافية .

- ان ابن محمود لا يمكن ان يكون لصاً أبداً ، وأستبعد ان يكون من جامعي الاعقاب . امض ايها الفتى الى والدك . ثم مد الضابط لى محمود يداً يعرفها .. وصافحه ثم استدار مع ولده وانطلقا في طريقهما الى البيت ، وابتلعتها الدروب المعتمة دون ان ينبس احدهما بكلمة .. وسارا يسلها الزقاق الى زقاق ، والعطفة الى جادة ، حتى كان بيتهما ..

ووقف الاثنان يستجمعان انفاسهما اللاهثة ، واذا بصوت يعلو من الداخل ، صوت وافد على الدنيا جديد ، يبدأ حياته باكياً بصوت كالعواء .

- اي ما هذا ؟..

.. اخ جديد ولدته امك ..

الا ندخل ؟

- كلا ، انتظر ..

ونظر الولد الى ابيه وفد امك بيده علبة ثياب وراحت يده

الثانية تبحث بعصية في جيوب سرواله وسرقته عن شيء ..
هنا دس حين يده في جيبه واخرج عقباً من بين الاعقاب
القابعة فيها ، ودفعه الى ابيه ليتقر في لحظة بين شفتي والده
اليابتين المرتعشتين ..

على الدّرب

هوذا الجرس يقرع . ما اطول ما انتظرته ! فاسارع واسحب
يدي من حوض الماء الذي رُصت فيه زجاجات فارغة تنتظر
الفعل لتعباً باليرة من جديد ثم تحمل الى حانات المدينة وعلب
ليلها .. فما تلبث ان تنصب في افواه ظمأى لا تعرف الري وتعود
الى بسرعة فارغة تنتظر الفل .

وادير فيما حوئي عينين زائفتين ابحت عن خرقه .. وأجد
واحدة فاروح اجفف اصابعي المتفضة لطول ما نقتت بالماء .
اجففهما اصبعاً اصبعاً فالاحظ خلو يدي من الخاتم الذهبي .. طالما
حلمت ان ألبس خاتماً ، اي خاتم ، واحداً ذا حجر لamac احمر كالذي
كنت اراه في واجهات الصاغة . وكنت احلم دائماً ان اضعه في
البصر الايمن .. وجمعت مرة مبلغاً ووعدت نفسي بالخاتم الذهبي
ذي الحجر الاحمر وما كنت ادري ان ابي ميوت فاعطي امي
التود واحزن على ابي كثيراً ولا اعود اسمع لنفسي ان افكر
بالخاتم .

ولكنني املك واحداً الآن .. خاتم خطبة ، حلقة بسيطة
صفراء طلق بها اصبعي اعطاها لي عندما قال لي : « ستكونين
زوجتي .. و فرحت : سأكون زوجته وسألبس الخاتم . واشتيت
ان يعطيني الى جانب الحلقة الصفراء خاتماً آخر ذا طبعة حمراء ..

ولكنه لم يفعل .. انه فقير مثلي وما كان في طوقه ان يهديني
اكثر من خاتم الخطبة وثوباً من الحرير الازرق وزجاجة عطر لم
افتحها بعد .

ومددت يدي الى جيبي واخرجت كيساً جديداً صغيراً
اخرجت منه الخاتم حيث خبأته خشية ان يذهب الماء والصابون
بلمعانه .. ولبسته .. والتفت حولي فاذا رفيقتي العاملات قد
تسرن كلهن الى بيوتهن القريبة . لعلهن الآن جالسات الى طاعم
دافى .. او مستلقيات على فراش .. لشدة ما تؤلمني وجلاي ،
ولكن علي ان انتظر امام المصنع قليلا فقد يمر بي بسيارة المصنع
ويحملني .. فما في طوقي ان اعود في هذا الماء البارد المطير مثلاً
على قدمي الى المدينة .. نعم يحملني مع صناديق الزجاجة الى
المدينة ويسلني للبيت ، ويطوف هو بوزع صناديق البيرة على
الزبائن .. اجل سأنتظر ، فانا تعب وكفى انني طويت المسافة في
الصباح مثلاً . فمررت باشياء كثيرة ، بيوت ، لا تزال مغلقة
المخادع ، أناس يسرون الى اعمالهم نصف نائمين فما تزال في عيونهم
احلام لم تمح . وارى ايضاً بائعات اللبن والبيض ، وارى سحابة
ينعقد فوق مداخن البيوت . وامشي ، وامشي طويلاً قبل ان
اصل . وكأني بصاحب المصنع قد اقامه في آخر الدنيا . واتذكر
القطار الذي كنت كلما شاهدته وانا صغيرة اخاله سائراً الى آخر
الدنيا ، اني ما لانهية ، وأصل اخيراً مع العاملات الاخريات في
الوقت نفسه ولكنني اترك بيتي قبلهن باكثر من ساعة .. بيتي
بعيد .. في مكان عتيق من المدينة .. هناك ولدت وهناك

عشت .. ولا اترك بيني الا بعد ان اتزوج ، اجل سأتزوج
فلديّ خاتم ورجل احبه سأخذني الى بيته واعيش سيدة فلا اغسل
الزجاجات بعد . ولا افق قبل الديكة .. ولا تدمي قدمي الرحلة
بين المصنع والمدينة .. ان رجلي فيمير ولكنه قوي وطيب ، وسأبدو
الى جانبه قوية فلا اشعر بضآلتي كما احس الآن حين تمر بي واحدة
من اولئك المعطرات الانيقات . ان ثوبي الازرق الذي اعطاه لي
جميل وسيتري لي واحداً غيره . وه هو ، إنه قوي جميل هكذا
قالت عنه فتيات المصنع .. وكثيرات منهن حسدني وبعضهن فرح
لي فقلن يوم خطبت اليه : « سترتاحين من هذا الشقاء » . وقالت
لي واحدة خبيثة : « انني حائدة ماهرة اذ اوقعت عاملاً في شباك
ولما ينقصر على عملي في المصنع شهران » . سمعتها تقول هذا ولم
اكرهها ، لعلها تتسنى هي الأخرى شخصاً يرغبها من بعض ما هي
فيه . هذا حقها ، لم لا تكون هي وانا وكلنا مثل النسوة المدلات
اللواتي يجلسن على شرفات بيوتهن يثرثن ويحجبين القهوة ويرفعن
الفناجين الى افواههن بأيدٍ عاجية سحينة حلت بالحوائم اللامعة
ويضعكن منا كلهما مروننا بين بئابنا العتيقة .

الطريق مقفر . الماء مائع بضباب . وهذا الرذاذ يتساقط على
وشاحي الصوفي الذي لففت به رأسي ولما تأت السيارة به وبالزجاجات
بعد ! لم تأخر ؟ تراه غادر المصنع مبكراً على غير عادة فلم احس به
وسط تلك الدوامة من حركة الآلات والآدميين ؟ بدأت اخاف
والدرب طويل طويل .. الى آخر الدنيا .. حيث بيتا العتيق ،
وامي الفضية الشعر ، ونار عليها قدر حاء ، وبي جوع وبي شوق

لامي وله ، نجلس ثلاثتنا حول النار وتحدث في أشياء لا تشبه
الزجاجات ولا دخان المصنع ، ونحلم بأشياء لا نعرفها أباناً. تراه مر
بي ولم يرني ؟ وسمعت صوت سيارة يجدهش صمت الماء . لعله هو ؟
وبدت من بعيد العنان المضيئان ، واقتربتا مني رويداً رويداً . لا . لم
تكن سيارة الشحن الكبيرة ذات الصرير المزعج ، بل كانت واحدة
من سيارات المترفين خفيفة رشيقة وكان يقودها ... ولكنه لم
يقف . ترى لم ؟ انا واثقة من انه رأي ، فعينا السيارة تشقان عمة
الماء ، وقد تصدّيت لها حتى خلطها متدوسني . ولما فاتني صحت بقوة ،
فوقف ، وعدوت اليه وفتح الباب لي . وهممت بان ارفع رجلي
ولكنني اجفقت وشعرت بعينين قبيحتين تحدجانني من وراء
نظارتين سوداوي الاطار . من كان ؟ لا ادري ! لعله المدير الذي
نعرفه بالاسم فقط . وغلل ودفع جسمه الى الامام قليلاً سائلاً
بكبرياء : « من تكون هذه ؟ » ولم يزد بل حرك يداً فيها سيجار
ضخم مشتعل أن ابتعدي . فما كان من الرجل الذي احبه ويحبني ،
الرجل الذي شدني اليه وقال « ستكونين زوجتي » إلا أن نحاني عن
الباب ثم أبطه في وجهي برفق او عنف لا ادري . ومرقت السيارة
وخلّطني للعاصفة وحيدة ، وفارت في عيني دموع سخيفة ولقّنتني
موجة كراهية ، ورقصت امام عيني صور الاشياء ضخمة تمتنع على
ضعفي ، منعلية سائحة لا ينالها الزاحفون على بطونهم امثالي . كلها
جبار - البيوت ، الآدميون ، الاشجار ، السيارات ، حتى زجاجات
البيرة الفارغة ، خلت الواحدة منها في طول المارد ، ووسط هذه الدنيا

من الشوامخ رأيت نفسي معه .. مع الرجل الذي اعطاني خاتماً
وقال : « ستكونين زوجتي » . وكنا قزمين ندبّ على الارض
نطّى فلا نبلغ طول اصبع المدير التي نحتني بإشارة عن الـيارة
وخلتني للعاصفة .

في المفكرة

لم تدر صاحبنا أن يومها هو آخر أيام السنة ، فما كانت الأيام والشهور عندها بحساب . وما كانت لتعباً بقواتح الأعوام أو خواتمها ، لولا أنها ألقت نظرة على النتيجة المثبتة على الحائط ، لتأكد من تاريخ اليوم الذي هي فيه قبل أن تتوج به رسالة كلفت بكتابتها ، فأثبتت بأنه اليوم الأخير من ديسمبر . وديسمبر ترتيبه الثاني عشر من شهور السنة كما تقول التقاويم ...

اذن ، فقد انتهى العام ... تماماً كما بدأ ... الهدوء نفسه والذوق نفسه . استقبلته كما استقبلت غيره فيما سلف من أعوامها ، وهذا هو تودعه دون أن تدري التحية أم تذمه ، فما حل لها في طياته ما يزعج ، كما لم يطالها بما يبهج . فاي حق لها في أن تحمد أو تذم ... ؟
غداً عند إلى التقويم يبدأ فتشرعه وتعلق الجديد بدلاً منه . وغداً يتحتم عليها أن ترقم في رسائلها عام اثنين وخمسين بعد الألف والتسعة . وغداً تلقي بمفكرة المكتب .. الحافلة بالإشارات والأرقام لتأخذ أخرى جديدة تفتح بها عاماً مكتيباً .. من أعوام حياتها التي لم تكن .. الا مكتيباً ورسائل ، ومطبوعات وحسابات .. وحدقت إلى المفكرة السوداء الغليظة . فقفز فكرها إلى مفكرة أخرى صغيرة هانئة مع الأغراض الأخرى في حقيبتها الأثرية تذكر أنها استقرت من أحد المحال التي تزود منها بحاجات العمل

من اقلام وفرطاسية، فرأت هذه المفكرة وشاقتها جلدتها الحمراء،
فبتاعنها، وتقبضت اصابعها عليها، حتى اذا ما وصلت بيتها كان اول
شيء فعلته انها خطت على صفحتها الاولى كلمتي « عام جديد » ..
ورسمت بعدهما صفاً من علامات التاؤل ..

وتفتح صاحبتنا مفكرتها الصغيرة فذا هي لا تزال بيضاء من
غير سوء . اللهم الا من علامات نحن الى الجواب .. فاذا ما عز
عليها ماتت فيها اللفظة وان ظلت على انحنائها .. وهكذا خلت
المفكرة من اثاره تخلف معها الذكرى او عبارة يقف عندها
الفكر لحظات .. وماذا كانت حين خطت هذه الاشارات ؟ انها
نفسها لا تدري ! .. فما عاشت يوماً الا كما تعيش اليوم، وستعيش
الى الابد .

الى الابد ... وافزعتها هذه الكلمة .. فهي ذات مطاطية لا
تحتمل .. الى الابد ، هذه تعني بالنسبة اليها مكتباً عتيقاً ..
ومحبرة ملوثة وطابعة تبدو حروفها وكأنها انسان عالقة في جمجمة،
ورفوف عدة اصطفت فيها نماذج من المسامير والبراغي واصناف
البواب التي يتجربها مخدومها . الى الابد .. مع هذا الرجل
القريب - البعيد وتلفت الى صاحب المحل ونحديق الى وجهه
الهادي .. هذا الوجه الذي حازت في دراسته فخرجت بلا شيء،
فكانه قد لبس طابعاً لا ينزعه الا في مناسبات نادرة .. حين
ماتت امه مثلاً .. ومرة حين زارها في المستشفى يوم استأملت
زائديها الدودية وبيده علبة كبيرة من الحلوى .. انه طيب .. لا
شك في ذلك .. ولكنه غريب .. فهو لا يثور ولا يفعل ولا

يفضب ولا يفرح ولا يمازح ولا ، ولا ، ولا .. فما عرفته الا
هكذا .. عندما اقبلت على المكتب منذ عشرة اعوام . وقامت
صاحبتنا بانفعال تطل من النافذة فتبصر بالناس افواجا يتأبطون
العلب .. ويحملون اللقائف ، ينون انفسهم بليلة ملونة .

انهم يحسون الايام . اما هي فما في عام يروح وآخر يجي ،
مبعث فرحة او محرك امل . فيومها الاخير كبقية الايام وليتها
كنتك الليالي الباهتة ، وجه تقنع بالجمود .. ملقى على نحدة وفيه
قديمة .. ومصباح تومض فيه ذبالة وانية .. وغرفة تغلفت جدرانها
بالصقيع .

وتركت موقها من النافذة وعادت تلقي بنفسها الى الكرسي
ونمك بمفكرتها الصغيرة بعصية ظاهرة .. لم تبخر الا بعد ان
تحدرت من عينيها دمعتان لذعت سخونتها خديها . ولم يخف على
صاحب المحل ان يلحظهما . فتومض عيناه في اشفاق .

وحين قامت صاحبتنا في الماء تقفل ادراجها وتوضب حاجياتها ،
ربطت رأسها بوشاحها الصوفي القديم ، وشدت ستونها القائمة على
جسمها التحيل ، وأقبلت على مخدومها تودعه وترجو له عاماً سعيداً .
وشدت على يدها بجمرة ادهشتها وناولها مظروفاً اصفر حشاه ببعض
اوراق النقد وقال :

- هل اشتريت لنفسك ما يروقك من ثياب ؟ لقد عزمت على
المرور بك الليلة لأحملك الى مكان ناسير فيه المعيدن .. ومن
بدري فقد انجح في حملك على ان تخطي شيئاً جديداً في مفكرتك .

زواج العمة

كان من الطبيعي وزائرتنا « ام يوسف » ان 'تفك' الالة من عقالها وتحوض في شئون الابعدين والاقربين من الجيرة وسكان الحي .. فام يوسف شركة اخبارية نشطة تبذل في جمع الاخبار من اطراف المحلة جهداً لا يُنكر عليها. وهي الى هذا كله لا تراك مرة الا وتحديثك بمجديد او قديم، وقد تعرف من امرك ما لا تعرفه انت عن نفسك . وقد تطالعك باشياء لا تقع لك على بال .

وانباء ام يوسف لا تحتل الشك والتأويل فهي ابدأ على تة بما تقول . قالت وقد جذبت انقاساً نهمة من لقيفتها أتبعها برشفة مسوعة من فنجان القهوة : « انه عرس ملوك ، عقبال العائزين . فام شوقي تريد ان يتحدث الناس عن عرس ابنتهم ، فلا يفتنون .. الاثواب خااطتها للعروس احسن خااططات البلد .. الاثاث من اثمن الاخشاب .. والعطور والزهور .. والمفارش .. ماذا أعدت وماذا ادع ... ولم لا تفعل ذلك واكثر منه ؟ (سلامة فلوس ناجية) ورحمة الله على زوجها مسعود ، وكأنا كتب على آلاله المؤلفة ان يرثها ابو شوقي وبنوه من بعده وان يرتعوا في خيره فلا يتكافوا اكثر من هذه الرحمات يستمطرونها عليه كذباً ورياء .. ومنى كان الكلام بفلوس ؟ ان من لا يعرف ام شوقي يجهلها .. ولكنني اعرفها . » واستكان لسان ام يوسف لحظة لترشف من فنجانها

الرفقة الاخيرة حين سألتها امي - « ترى الم يطرق باب ناجية طارق بعد زوجها المتوفى ؟ »

هنا فتبعت ام يوسف عينيها حتى باتتا مدورتين كعيني قط . . وقالت : « ماذا !؟ صدقيني انك بسيطة يا امرأة . . اهناك رجل لا يود ان ينام على ثروة ناجية ؟ لقد تقدم لها اربعة من تحت يدي هاتين . . ارلهم احد ابناء عمومي ، موظف له في آخر كل شهر مرتب محترم . . وداره ملك له ورجل متور و ابن ناس . . والثاني آه . . ارجو اعفائي من ذكر اسمه ، تاجر رجله في السوق راسخة . والثالث . . مختار المحلة سعيد ابو عبدالله . . كلكم نعرفونه والرابع ملاك ذو مال وعقار لا تأكله النيران .

-- او لم يعجب واحد منهم ناجية ؟

-- هيه . . ان ناجية يا جاري لا في العير ولا في النفير . . كنت اذهب فاحادث اخاها في الامر بعد ان اجس نبضها واطمئن الى قبولها فيسمع الي ، ثم يطرق قليلا ويقتل شاربته ويعد خيراً . . فاذهب انا فينقعد المجلس وترأسه تلك الحية ام شوقي . . اما القرار فمعروف . ان ناجية تعتذر فما في عينا بعد زوجها رجال . . ويشهد الله ان ناجية لو قالت شيئاً من هذا فبوحى من اخيها وزوجه وابنائها . . وكأني بها كانت مدلهة بحب مسعود الثقيل الغليظ . يرحمه الله على كل حال فالرحمة على الموتى واجبة . ليتك رأيت ناجية قبل ثمانية عشر عاماً وكانت في عامها السابع عشر يوم زفوها الى مسعود . . وكان ارمسل سميناً جسمه اشبه بركيبة محشوة بالقطن ، وله وجه متهدل الاعم ، ولكن اسألوني عن جيبه . .

مال قارون .. تجارة نافقة وبيوت مرفوعة وحوانيت كثيرة .
وعاشت المسكينة مع الكهل ثمانى سنوات لم تنجب خلالها ولداً ..
مات هو بعدها متأثراً من الضغط الدموي .. وكان مدلهأً يجب
ناجية الطرية العود فكتب باسمها الطارف والتيد وما نال منه
ذووه شيئاً .

« وحياتك يا جارة ، لو كان المائت ابنأ لابي شوقي لما سكب
الدموع التي ذرفها وزوجه . لقد جمعوا مشايخ البلد وعلا صوت
القراءات عن روح الفقيد واقاموا مأتمه اربعين يوماً وليلة وناجية
كالبلهات تصيح كلما صاحت ام شوقي او ضرب اخوها كفاً بكف .
« وحوقل وتعوذ بالله واهتزت شرابة طربوشه ، وعدد مآثر
العقيد وبكاه مائتاً ولا كالمونى .

« وتنتهى ايام المأتم والعزاء . ويقبل ابو شوقي على أخته فيقسم
ان لا يغلّق باب المسود .. بل يظل بيته مفتوحاً قائماً وكان
الرجل موجوداً وزيادة .. وان تظل ناجية سيدة بيتها ومكانها .
« اما واخته من الولايا ... وشابة على قطر من حن ،
وثرية يطمع في مالها الطامعون فمن غير المعتول ان تقيم على
حزنها في دار بـرح فيها الحبال لكبرها ونهبها الوحشة في
رابعة النهار .. اذن فأبو شوقي وأمه وشوقي واخوته واخوانه
يأتون ليفكّوا وحدة العمة ويؤنّسوها فلا تموت غماً بعد مسعود .
« وبألها من تجارة رابحة . لقد باعوا ما يملكون من اثاث واجروا
دارهم واقبلوا على العمة ضيوفاً اعزاء .. واي ضيوف . ايام
واذا بها الضيفة وام شوقي صاحبة الحول والطول تأمر ونهى

فلا يُرد لها امر" ولا 'تخالف' رغبة" ، ولا يكلفها الامر' اكثر من
مايرة بسيطة لناعية .. وحبها ان تقيه على نوة الحبي ويطاول
أنفها السماء .

« وتولى ابوشوقي شؤون اخته المالية ، فباع واشترى وحط
وسال وغير وبدل وبلع ما بلع وظل يترحم على معود كلما
قام او قعد . وملا جدران البيت بصور الرجل واستاجر المقرئين
يتلون آيات الكتاب الكريم على قبر معود كل يوم جمعة .
وصار يحتفل بذكري وفاته مرتين في العام .

« ايه ، هكذا يكون الضحك على الذقون . لقد قصدوا من
وراء ذلك ان يملأوا رأس ناعية بذكري الرجل فلا تفكر في
زواج جديد .. شأن الخفيفات من النساء ! واصطادت ام شوقي
في ماء عكر حتى أوقعت بيني وبين ناعية . قالت لها افتراء
وكذباً إن أم يوسف تجلس بين جاراتها وتقول : لولا مال ناعية
لما فرحت بخطيب يدق بابها ، والكلام بيننا باجارة .. الامر
صحيح .. وزواج البنات في هذه الايام أمنية عزيزة فكيف
بالأرامل ؟

« ايه مالي ولها .. والله لولا محبتي لناعية واشفائي ان يلعها
اخوها واهله كما سميت .. مجنونة ليظل ما لها حلالاً زلالاً على
ابي شوقي وبناته واصهاره ، لابناته احسن الكليات ولبناته افضل
الازواج ولكن مالي انا ولهذا كله ؟ »

« ووقفت ام يوسف والتفت بعلامتها ونهضت قائلة : « لم يعد
لدي ما اسليكن به فامهلني حتى تتزوج بنت ابي شوقي . »

واطلقتها ضحكة عالية وانصرفت عجلانة، فلا تحترق الطبخة التي تركتها على النار .



ولم ترَ أم يوسف لا يام فقد 'شغلت' عناكما 'شغل' اهل' الحلي جميعاً بعرس سعاد بنت اخي نجية .. وراحت المدعوات من النسوة يتهبأن للحدث بجديد الثياب وافانين الزينة .. اما ام يوسف فبالرغم من ان ام شوقي كانت احذر من أن تجعل من مناسبة العرس مدعاةً لاصلاح ذات البين فلم تدعها اليه الا انها - اي ام يوسف - نشطت للامر اي نشاط .. فخير من هنا وقصة "من هناك"، ولها من ذلك ذخيرة تتحدث فيها شهراً وبعض شهر . مرت بنا قبل العرس مروراً خاطفاً فقالت : « يشارك يا جارة .. لقد ابتاعت ناجية ثوباً ملوناً وحذاء وزينة للعرس وطرحت عنها السواد .. هذا اول الفيت، وضحكت ضحكتها العتيقة ثم انسلت كما جاءت على عجل . واطلت علينا بوجهها في اليوم التالي، وقالت : « لقد قصت ناجية غداثرها وارسلت خصلاتها برسالة كما تفعل المتفنيات . شاهدها بالامس عائدة من لدن الحلاق ضاحكة السن منفرجة الاسارير . وعندما مرت ببابنا التفتت * والقت التحية وسلمت تسليم الصديق وسالت عن صحي وصحة الاولاد .. ايه انا لك يا ام شوقي فاصبري علي شهراً . شهراً واحداً فقط .. » وصرنا ننع فيما بعد من النسوة الجارات ان المياه بين ناجية وام يوسف قد عادت الى مجاريها ، وان الاولى قد انتهزت فرصة انشغال زوجة اخيها بالعرس وذيله فصارت تتردد على بيت الثانية

بين يوم ويوم .. وصرتا نسمع ونرى من اثواب ناجية الوائسا
واشكالا بعد ان كنا لا نعرفها الا سوداء كالغراب . ولعل
انهاك ام يوسف بذلك كله قد باعدت بين فترات زيارتها لنا . حتى
كان ماء اقبلت فيه علينا مهرولة كعادتها ، وما المحت لها امي
بخبير ناجية حتى قالت :

« بني وبينك ياجارة .. لقد بدل عرس بنت ابي شوقي ناجية غير
ناجية .. فاذا اثوابها خضراء حمراء ، وشعرها يتضوع بالعطر ، واظافرها
مصبوغة بالاحمر ، واحذيتها عالية الكعوب .. وانظرها في غير
اتجاه قبر مسعود . سبحان المغير .. منظر عروس في جلوتها
ترف الى رجل .. قد عدم خطط ام شوقي من اساسها وحرك
في ناجية شجوناً ورغائب . ما إن قلت لها بالامس ان امنية العمر ان
أراها عروسا وان كلمة منها كفيلة بتحقيق المشهى فيأتيها قوج
تفتي منه واحداً يتأهلها حتى قالت « والله انت صديقة يا ام
يوسف .. وما اراك الا تريدن خيري فافعلي ما تشاءين » .

وابتست ام يوسف بخبث وقالت : « بني وبينك ياجارة هذه
نفس وناجية بشر .. والله ان اهدأ حتى أزوجهها وانف ام شوقي
في التراب .. »

أُمُومَةُ خَيْرَةٍ

عادت تجر الخطى جرأ لتبعد ولديها والاستفهام يطل من
عيونها وقد تركزت عليها .

اما من يكون هذا الرجل ؟

وخضت « نبيه » عينيها وامسكت كلاً من ولديها بيد
وجرتها نحو اقرب مقعد وراحت تمسح على شعرهما بحنان ..
ولكنها ظلاً ينظر ان اليها بعيني والدهما في تساؤل يضيق بالغموض
ويبرم بالاحاجي .

وماذا عاها قائلة ؟ هل تقول بان هذا الرجل الكريم الذي
لا يحضر الا وفي يمينه باقة زهر وفي يسه حوى وغيره للصغيرين ..
جاء يعرض عليها الزواج وعليها ابوته ..

لا ، لن تقول شيئاً من هذا .. فلن يفهم الصغيران شيئاً . وكل
ما سيفعلانه هو ان يهزا رأسيهما في حيرة ، ثم ينطلق كل منهما الى
احدى اعبه ويتوكلانها تأمل نتيجة الصراع في نفسها . فهما اصفر من
ان يشعرا بهذه المعركة التي احتدمت في ضمير امهما ، وخرجت
منها منتصرة .

ولكن هل انتصرت فعلاً ؟ وهل تسمي شاباً نجاهلته بقوة
بالغة وشوشة أسكنتها بحزم ووعداً اصمت دونه الاذنين .. هل
تسمي ذلك كله انتصاراً وغلبة ؟ ؟

إذا كان في تمسكها بالمنطق الذي اصطنعته ، والقيم التي اتخذتها
نصرة لها فلم لم يسكت ذلك الوجيب في قلبها .. والتبرم في
روحها ؟ .

انها شابة . لم تنفض يدها من عامها التاسع بعد العشرين الا
قبل ايام .. وهي جميلة اذ لم تقس' اصابع الحزن على قلماتها كل
القوة .. فابقتها وسية وادعة . وهي ضيفة .. انها امرأة قبل
كل شيء .. والحياة كما بلتها - فرة مخيفة لا بد لها من رفيق ..
لقد تجاهلت في غمرة انتصارها لمنطقها كل هذه الاعتبارات ،
وحشرتها في زاوية مقرورة من قلبها .. وكفتها باثواب المراوغة ..
لتلبس ثياب الشهدات الكريمات . فإلها من غلبة .. تفوح منها
رائحة الهزيمة !

وتطلق صاحبنا آهة .. وتعود تنح على شعر صغيرها في
حان وتقول .. يا لي من اناية ! كيف سمعت لشبابي ان يطالب
ولوجودي ان يحاسب وانا لت نفسي بقدر ما انا لهذين الصغيرين ؟
« انني امها وابوهم .. ولكن ما لها لم تقل انها وفيه لذكرى
رجلها الراحل ؟
الوفاء ...

وشعرت بالكآبة تخرج من فكرها باردة الملمس ، خافقة
الصدى . هذه الكآبة التي كانت في يوم من الايام قيداً يحول بين
شفتيها والبسة .. ويشدها شداً الى قبر زوجها . فلا تنشق من

الدنيا الا رائحة الذكريات .. فما للقيد قد تراخى والكلمة قد
تلفعت بالبرود ؟

لو جاءها هذا الرجل نفسه خاطباً في الاعوام التي عقت وفاة
الزوج لأعرضت واساحت . ثم حدثت في الصورة الكبيرة التي
لزوجها على الجدار وقالت .. « هل بعد هذا حبيب ؟ »
ولكن أعواماً ثمانية في الجفاف والانتقطاع علمتها كيف تؤمن
ان النفس كالنبات لا تنفأ تلتصق الاشعة الدافئة ، والنهله المروية ،
والظل الوارف .

اجل لقد بات من العير عليها الآن ان تتشقق برفائها فقط
فتعزو اليه امساكها عن خوض معركة الحياة من جديد ..
انها بشر .

ولكنها ام صغيرين ايضاً ، فان تمكنت بموقفها فلأجل هذين
الصغيرين وبدافع من امومة خيرة عطوف .
ولقد ذاقته هي نفسها مرارة اليم ، وكانت صغيرة مع اخوين
لها ، ولكنها لم تجرعه صرف المرارة الا بعد ان تزوجت امها من
جديد .

انها لا تستطيع ان تلوم أمها ، فقد كانت هي الاخرى شابة ولم
يكن لها من يأخذ بيدها ويسوس معها اسرة كبيرة ، وكان الرجل
الذي تقدم اليها وجيهاً مرموق المكانة فأغراها بالمركز واغرقها
بالعود فتزوجته ليشفى ابنائها ، وتشقى هي بشقوتهم . اذ تبين
لها ان قلب الزوج اضيق من ان يتسع لها وحدها ، ونفسه اسقم من
ان تكون سمعاً كريماً . ويده انجل من ان تثبط لابناء ليسوا

له . فجعل من حياتها جحيماً احمر ولوعة مستديّة . كان له ابناء آخرون من زوجه الماتة فراح يتهمها بايثارها ابناءها على حساب بيته وابناؤه فتضطر الى اغفال فلذات كبدها لئلا تسمع منه ما تذكره .

كان ديكتاتورياً فظاً يأمر فيطاع ، يريد البيت في سكون بيوت الله ، وويل لمن تغريه حدائته بلعبة يرتفع معها ضجيجيه . إن له مع زوج أمه حساباً دونه حساب ملكي الموت .

هل تذى ضجيجيه وهديره والنعوت التي كان يطلقها على اخويها بوقاحة مسرفة ؟ هل نفس يوم أمك برقبة اكبرهما وانها عليه بعضاً غليظة لانه كسر غصناً في الحديقة ؟

لقد شل الجاني يدي أمها . وكان شلها مطلقاً حين وضع يده على كل ما خلف والد ابناها . ثم راح يعارضها في ضرورة الاتفاق على تعليمهم ..

اجل .. انها تذكر .. وترى شبح الامس يتهددها ويتهدد غدها وغد طفليها .

ظلت شقية واجمة حتى تزوجت ... ولما تزوجت كان زواجها اقصر من حلم ليلة صيف .

نفس الدور الذي لعبه القدر مع امها يعاود لعبه معها . ونفس الحرمان التي جرعتة واخويها صفاراً يجرعه صفارها ، اذ يموت الزوج ويخلفها لشقاء جديد ، فتكفر بالموت والحياة وبارادة تاهو بمصائر البشر ببساطة متناهية وتحبس نفسها عن الدنيا ونصم ان تموت باصرار مجنون فما يردعها عن جنونها وكفرانها بالحياة الا هذات

الصغيران . نظرت اليها فرأت في وجودهما امتداداً لحياة رجلها
المات الذي احبته بكل جوارحه . وحدثت في
عيونها فلمحت فيها طيفه يسوق اليها التشجيع والعزاء مقرونين
بالضراعة . فاقست ان تمسح على لوعتها بيد العطف وان تسببت
صحراءهما زهراً ... وان تحمل رسالة التفاني الى النهاية . وظلت
هكذا سنوات تصد الراغبين في رفيق واثابة الى ان لاح هذا
الرجل في أفق حياتها . فوجدت فيه شيئاً يختلف عن الآخرين ..
لقد لمست فيه حناناً وتقياً .. ومشاركة . ولكنها صدته برفق
كما فعلت بالباقيين .. اذ آلت على نفسها ان تبصر في الرجال جميعاً
وجه زوج امها ..

هكذا قررت وانتهى الامر .. فماذا وللتفكير الآن . انها
أم ... وسنبقى .

بائع صحف

لن يضيع صوته في زحمة الاصوات ، ولن يختنق في غمرة الف
نداء ونداء يجأر بها باعة الثلجات « واللبن » الاميركي والشاطر
والتين الشوكي الثلج . ولن يموت قط مع صوت نادل المقاهي
المصفوفة على جانب الطريق ينعون : « هات ناره وواحد سكر
قليل وشيشه يا ولد » . . . ولن يبهت هذا الصوت ذو الشخصية امام
نداءات سائقي السيارات . هذا يريد اصدا راكباً ، وذلك يطلب
لصور راكبين .

صوت عبود صوت واضح متميز ، ألفته منذ زاد عدد الصاخين
واحداً بانضمام عبود الى زمرة بائعي الصحف في محلة السور بيروت .
ولم اختار عبود ان يكون بائع صحف بالذات ؟ لقد سألت نفسي
هذا السؤال ، الى ان سمعت الجواب من عبود نفسه فيما بعد . لقد
كان ابوه بائع صحف والناس على دين آباؤهم . وماذا يعمل غير
ذلك ؟ انه زاهد في تجارة اللبن الاميركي . وراغب عن بيع
الامشاط والدبابيس والطواف بها في صندوق زجاجي ؛ فهذه
-- على حد قوله -- بضاعة نساء والنساء لن شاربات كريمات ،
فما كان بعشرة قروش دفعن فيه الحمة . . وما كان بخمسة ، ما
من بأس عليهن لو طلبنه مجاناً « على البيعة » والبيعة لا تزيد قيمتها
عن بضعة فرنكات بحال .

وانف صاحبنا ان يلتبس الخبز من وراء اليانصيب .. فقد كان له رأي في هذا اللون من التجارة طالما ادى به الى العراق مع جاره خميس الذي لا يفتأ ينط كالقردة صائحاً : خمسون الف ليرة جائزة .. جرب حظك .. وكان لعبود ذراع قوية والا لما كان يخرج كل مرة منتصراً ومزهواً بهذه الخارطة من الحدوش التي كانت ترسمها اخفاره على وجه خميس .

واذكر عبود عندما وأتته للمرة الاولى من خلال واجهة حانوتي الزجاجية ونحت ابطه رزمة من الجرائد حملها ووقف بها في حيرة ملحوظة . فصناعة السداء جديدة عليه وفن الترويج لم ينعقد له لواؤه بعد ، فمن كان بحاجة الى صحيفة فليقدم .. وما من حاجة الى النط والقفز والتهويل .

واذكر ايضاً ان الظهيرة ادركته ورزمت لا تزال على حالها سينة ، سميكة ، دون ان يشير اليه اقدي يطلب نسخة يحملها ملفوفة مطوية شأن العارفين الناهين .

وظل هكذا الى العصر حتى اقبل عليه رجل كان اباه .. ما ان ابصر الرزمة على حالها حتى انهال عليه ضرباً وركلاً وصياحاً .. الا تنادي ايها الخائب ؟ او يسمع الناس من الساكت ؟ الجريدة كالخبز ايها الاحقق ! لا يريدونها الناس الا طازجة ! .. ويخطف الاب الرزمة ثم يلبس دور المهرج فتنفذ النسخ في بضع ساعات .

هذا وعينا عبود على ابيه يعجب من مهارته في التصريف وبشهي ان يكون على شاكلته .

ولم يكن درس الوالد من الدروس التي تنسى بدليل ، ان عبود
في اليوم التالي كان غيره بالامس .

لقد انبعث نداءاته .. خافتة اول الامر .. ثم علت طبقتها
كلما كان يمر عليه « في الكار » يوم جديد .. حتى كانت بانتها
الشهور الاولى الثلاثة ابرز بانعي المنطقة .. حقاً ان الولد سر ابيه .
كان عبود ذكياً ما في ذلك شك .. خفيف الروح والظل ..
وشخصاً يتسع بنصيب من قوة الفراسة . اطرف ما فيه نداءاته
تلك التي كنت اعطيها اذني كلما وجدني خلواً من العمل فهو
يصطنع الاخبار بالشكل الذي يستهوي المارة كل حسب عقليته ..
وعبود حر في ان يقيم الدنيا ويقعدها .. وحر في ان تكون
الحرب في كوريا او في اي مكان آخر من المعمورة .. صحيفته
للموظفين تبشر بالكادر والعلاوات .. وللتجار بالنسوية المشككة
الاقتصادية القائمة بين سوريا ولبنان .. اما الطلبة فحسبهم اشارة ان
يسمعوا نبأ عودة ريتا هيوارث بالحير الى علي خان .. بقيت لعبود
طبقة هي كثرة بين الزبائن ، وهؤلاء ينطلق خيال عبود ما شاء له
الانطلاق ويتفنن في ابتداع العناوين وهو ادرى بما يرغب هؤلاء
في صحيفته . وتنطلق النداءات كالقذائف . الرجل الذي ذبح ابنه ،
المجرم الذي دوخ القوات .. والفلاح الذي وجد كنزاً مطوراً .
هنا تنارع الايدي وفيها الفرنكات تختطف الصحيفة ، وتظل
يد الصبي تروح وتجيء تدفع النسخ وتتناول الثمن .. فتتقر
الصحيفة في يد واحد يقرأ حروفها العريضة .. ويجدق الى صورها
ثم يحشوها في جيبه ليلف بها زاد الغد .. وواحد يأكل حروفها

اكلا ليستوفي بالقراءة كل ما دفعه فيها . فمن الاخبار الى المحليات
الى الاعلانات .. لقد دفع فيها عشرة قروش فله حق في كل
حرف فيها ..

هكذا كان عبود كما عرفته طيلة سنوات ثلاث .. الى ان كان
مساء رأيت فيه عبود كعادته متهلل الاسارير .. متهدل السروال .
وخصلة الشعر الشقراء تدلى على جبينه .. ونحت ابطه رزمة من
صحف الماء ..

واخذ مكانه قرب موقف الحافلة يبيع النسخ لمن اطالوا
برؤوسهم منها .. وكانت عيني عليه ، فقد كنت اجد اذة في تتبع
حركاته .. ورأيت راكباً يطل برأسه فيدفع لعبود ورقة نقد
ادركت من لونها انها من فئة الخمسة والعشرين قرشاً وطلب منه
عدداً من جريدة البلاغ ، وناوله عبود العدد ومد يده الى جيبه ليعيد
للرجل ما تبقى له من اصل المبلغ .. هنا تحركت الحافلة ..
والرجل يتحث الفتي فر كض عبود وفي يده النقود .. وفي تلك
اللحظة اقبلت الحافلة الثانية على الخط المعاكس وكان اسوأ ما في
الامر انه في غمرة اندفاعه لم ينتبه لها سيما وان التقاء الحافلتين كان
على المنعطف ..

وارتفعت صيحات الجميع محذرة بما اربك الصبي فوقه ، ولم
يتسكن سائق الحافلة القادمة من تدارك الامر فدارس بعجلاته
الحديدية القاسية الجرم الفض .

وانتهى عبود .. انتهت شخصية طريفة احببتها وافت صوتها .
انتهى ونحت ابطه رزمة صحف تحت التصريف تفرقت هنا وهناك

وقد حملت وشاشاً من دمه كأنها عناوين حمراء ضخمة مثيرة، وبقيت
ملقاة حتى بعثرت بعضها الاقدام واخذ بعضها قوم لم يبالوا ان
يقرأوها بعد ان قصوا اطرافها الملونة .. واعتوى المحلة في اليوم
التالي وجوم قابض .. او هكذا خيل الي ، ولم اسمع صوتاً لبائع
صحيفة .. الا واحداً رقيقاً جاء يسمي في المساء منادياً على جرائده
بصوت ناسز . وكان اكثر ما غاظني منه ان سمعته يدلل عليها
بتفاصيل حادث عبود الذي مات تحت عجلات الحافلة ..

نافح الدَّوَالِيْبِ

لم اجد ما افعله لأروح عن نفسي من السأم الذي جثم عليها
ثقيلاً قابضاً خيراً من دخول احدى دور السينما للتفرج على فيلم في
حفلة السادسة مساءً ، التي اصطلح المتفرنجون على تسميتها بالحفلة
الماتينية .

ولم يكن في القاعة القبيحة سوى نفر من المشاهدين جلهم من
طلبة المدارس . فاتخذت انفي مقعداً ، وما هي الا دقائق حتى
بدأ العرض فتسرت عيناى على شاشة راحت تعكس صوراً
ومشاهد لفيلم من تلك الافلام المطبوخة على عجول والتي لا يستيفها
المشاهد ، الا ان يكون ذا ذوق في الفن تنقصه السلامة . وضقت
ذرعاً بالرواية ولما يزل العرض في منتصفه مع سابق تقديري بان
الفيلم لن يكون قوياً ، فالدور هنا عادة تدخر الافلام القوية لعطلة
آخر الاسبوع حيث تضمن عدداً من المشاهدين يزيد بكثير على
عدد روادها الذين يختلفون اليها في اواسط الاسبوع ليقولوا فراغهم
باي شيء . ولكني لم استطع الصمود الى النهاية فأثرت الانسحاب ،
دون ان افكر في وجهة معينة اقصدها . وتللت من الباب لاجد
الدنيا في الخارج وقد لفتها عمة الفسق وبدأت تتجعد بانوار
الكهرباء . مضيت ابحت عن دراجتي بين تلك الدراجات المسندة
الى الحائط ، اذ هي هنا - اي الدراجات - وسيلة الانتقال

الوحيدة في هذا البلد ، واذا بي ارى صيأ ينحني على دولابها عابثاً
« بالبرغي » المشدود فيرنحني العجل المنفوخ بحركة زفير قوية
وفوجيء الولد بيدي الكبيرة تستقر على كتفه فما جرؤ على ان
يرفع رأسه الي . فسجته بقوة فانتصب وتبينت وجهه الملوث بزيت
التشحيم . لقد كان الصبي الذي يعمل في ورشة الدراجات القرية .
هنا وضع الامر لدي اذ لم تكن هذه المرة الاولى التي يعث فيها
بدراجتي ، وتذكرت ما كنت اسمعه من بعض اصدقائي كيف كانوا
يقبلون عل دراجاتهم التي يتركونها بقرب النادي او السينما او
منازلهم فيجدون العجلات وقد افرغ هواؤها وصار من المتعذر
عليهم ركوبها . ووجدت الامر معقولاً بالنسبة للصبي ينلل فيعثر
بالاطارات حتى اذا ما تعذر دوران الدواليب حين خروجنا من
دار السينما كان لا بد لنا من ان نقصد المحل لنفخها . فينال قروشاً
من اقرب طريق .

وشعرت بالغيظ يا كلني فازداد ضغط يدي على كتفه وقلت :
— اداً ، هو انت . انها وظيفة طيبة ..
وانهارت اعصاب الفتى وصار يتلفت بئمة وبسرة والعرق البارد
ينصب من جبهته اللامعة الصفراء .

— دعني يا سيدي .. اقم بانني ..
— بانك ماذا ؟ لقد ضبطتك بنفسي .
— انني .. اوه لن تفهمني لو تكلمت .
— ماذا لديك لتقول مبرراً هذه الدناءة ؟
وهنا انتفض الولد وامسك بيدي وازاحها عن كتفه وقال :

- لا تتسرع باتهامي فلت دنيئاً ، دعني بالله ، الا تفهم ؟
وبدأت الدموع تغل عينيه . وشعرت بغضبي يتحول الى لون
من الحيرة امام توسلاته لي في الا اشكوه للبوليس واعدأ بنفخ
العجلة دون مقابل في هذه المرة . وتخلص الولد مني قبل ان يسمع
كلمة مطمئنة ، واقبل على عجلتي يقودها الى محله وسارع باحضار
منفاخه الكبير ونفخ عجلاتها ، ثم مر عليها بجحقة جلت غبارها ، ودفع
بها الي وتلك النظرة المرتعشة تطل من عينيه .
وابتسم انا قليلاً لأخفف من حدة تخوفه ، فاطمأن الي بعض
الشيء ، وقال : « لو مررت بي يوماً لاعتيت بدراجتك .. مجاناً . »
وازدادت بسمتي اتساعاً فزال بعض ما في نفسه وتجرأ على
ان يسأل :

- هل سنشكوكني ؟

والواقع ان فكرة ابلاغ الامر للمركز لم تخطر لي ببال
فالامر في نظر سالم مثلي اتفه من ان يضطريني للذهاب الى المركز
ثم الدخول في اخذ ورد لا ينتهيان لاسيما في هذا البلد الذي نهم فيه
السلطات بالصغار اذ ليس لدينا من الكبار ما تشغل به رجالها .
وقلت له وانا استعد لركوب دراجتي :

- كلا ، على ان لا تعود في المستقبل لثل هذه الاساليب .
وادرت عجلتي باتجاه الطريق المفضية الى بيتي . وما قطعت
مسافة يسيرة حتى شعرت بالصبي يتبعني على دراجته . وبجركة منه
سب علي طريقتي وقال باضطراب :
- سيدي ، هذه الطريق تؤدي الى المركز وانت وعدتني ..

وقاطعته بحدة :

- ولا ازال عند وعدي .

- « شكرآء قلها الصبي ببطء وهو يتفرس في عيني وهم بالعودة .

ولكنه تلكأ قليلاً وقال :

- كنت اود ان اقول لك شيئاً .. واكنني اخشى ان لا

تسمع الي ..

ثم تلفت بمنة وبسرة واردف :

- على كل حال ان هذا المكان ليس بالمكان المناسب ..

ولا ادري ما الذي دفعني الى مسابقة الفتى والاستماع اليه .

فقد شعرت بنوع من الاشفاق يجذبني نحوه . فقلت له : تعال ،

واخذه الى مقهى قريب وانتهيت به ركنا وطلبت له زجاجة من

شراب بارد .. - ولعله احس بعيني تتفرسان في وجهه فخفض

رأسه وراح يعبث باصابعه بحركة عصبية .. وقطعت عليه صمته الحائر

حين سأله :

« ماذا تريد ان تقول .. »

- لا شيء .. فقط اردت ان اسأل هل تظني دنيئاً ؟

ولم يعفني جواب معقول رزين ارد به عليه فقال : « انني

اكاد اقرأ ما يجول بخاطر ك . ومن حقلك يا سيدي ان تزدرى واحداً

مثلي .. فانا اعلم ان في عملي هذا ما يدعو الى الحجل .. ولكن ..

.. ولكن ماذا ..

- ان وراثي امأ وأخاً وأختاً يعيشون على ابرة «امي» وميا

اربعه انا من وراء نفخ العجلات . انني اعمل في الورشة حتى الخامسة

مساء لقاء قروش قليلة ، ثم يمضي «المعلم» تاركاً الورشة لي ، وهذه فرصتي الوحيدة لاكب قروشاً آكل بها . كم اشعر بالحجل حين اسمع في المدرسة اللبية دروساً تحت على الامانة ، وعلى الخلق القويم ، ثم اجدني في النهار مضطراً الى هذا السلوك . حتى امي التفتة لا تعلم سر هذه القروش اليومية ، والا لما كانت ترضى بالربح عن هذه الطريق . ان من حظي ان ضبطني شخص طيب مثلك والا لكان مصيري اصلاحية الاحداث . ولكن أليس من التعاسة اني لا استطيع ان اعدك بالكف عن هذه الحفارة الا اذا اخترت ان اتصور مع عائلتي ؟»

وسكت الصبي اذ خنقته دموعه . فربت على كتفه مخففاً ونهضت به لتفادر المكان . وقبل ان ينفترق عند باب المقهى اخذ يدي يشد عليها وقدم لي يده الاخرى وفيها قروش وقال :
« انك لا تتحقق ان ابتر نفورك ظالماً ، خذها فقد شاهدتك اكثر من مرة تنتظر دورك لتفخ العجلة . »

ولم ادر ما اقول . . كل ما فعلته هو انني لعنت الدنيا ثم اخرجت كل ما في جيب من قروش فضية دفعتها اليه وادرت وجهي خفية ان تطالعني عينان تكنها كبرياء جريح .

مَا مَا ...

كتب اليها يقول :

« سلوى ، انها مني فلا تطيلي التحديق الى التوقيع ولا تتعب
عينك صعوداً ونزولاً بين السطور .

انها مني بعد سكوت متكبر طال لم اشأ ان اخرج عنه الا
بعد ان جاءني من يقول : « لقد صارت سلوى امأ » .
عندها قويت في نقى دوافع الكتابة لسنزاح عني بعض ما
وجدت وأجد ...

وما لي ابدأ من النهاية ؟؟

دعيني استل حالي بما انا فيه وانمض عيني عن دنيا أنكرها فاذا
انا سالم ، ذاك القديم . يسير فخوراً متأبطاً ذراع عروس حناء
كنتها ، وقد استطار فرحاً حتى ما تلامس قدماه الارض .
ما اقرب الصورة الى خاطري توافيني كلها استدعيتها ، لأعيش
على تذكارات حلاوتها ، واقف عندها ساعات ويعصيني خاطري اذا
استدعيت غيرها وكأن حياتي انتهت هناك .

ونسير معاً الى بيتنا ذاك . وينتهي الوجود . هل أثير فيك
تذكارات بيتنا ؟ هل اوقظها وقد حشرتها في زاوية من نفسك
وغلفتها بألف ستار . تماماً كما تفرز القواقع مادة صدفية تغلف
بها كل جسم غريب دخيل لتتقي وخزه ؟

ان اطيّل الوقوف امام صورة واحدة ، فهناك عشرات ..
كلها حلوة .. وكلها سعيدة .. ولكنها تنضج بالالوان ..
وتنتهي هذه .. ويفرغ رصيدنا منها ، ونأتي على صور كثيرة
غيرها .. هذه تذكرني بيوم حملتك الى مستشفى الولادة ..
وتركتك الى يد الطبيب المولدة ... لاعود بعد ساعة فاقبل جبهتك
الرخامية والأذع وجنتيك بدموع تأثري فتحنيني عنك برفق قائلة :
« الا تنظر للصغير ؟ » ونظرت .. كتلة من اللحم ملفوفة في
فمّاط ، وعندما حملتها وطبعت على رأس صغيري قبلتي الاولى لم
تخلج عضلات وجهه بتلك الصورة التي يبدو فيها الصغار
حديثو الولادة .

واذكر انني قلت : « بالصغير البليد .. »
وعدت بعد ايام واباه .. وقد غدا هذا الصغير لنا شيئاً عظيماً
جنح آمالنا وعلمها ان تشطح الى آفاق بعيدة .
فتارة تمثله صيلاً صاخباً ، وتارة غلاماً رشيقاً .. وطوراً
شاباً يشق طريقه في الحياة ويدفع بنكبه السائرين .
ولكن ذلك الهدوء في الطفل ، وتلك البلادة لم تكن تطمئن
ان سيكون لصغيرنا شيء من ذلك .. وكان اكثر ما يثير دهشتنا
قلة بكائه ..

واذكر ساعة ان عدت ذات يوم من عملي ظهراً فلقيتني على
السلم مضطربة واجفة لتقوي : « سالم . لقد لاحظت على طفلتنا شيئاً ..
انه لا يرى .. عيناه لا تتأثران بالنور ولو انصب فيها ولا يخرج
لها جفن قط .. تعال .. »

واخذتني اليه فحملته وكان له من العمر اربعون يوماً، وحدثت
الى عينه فلم اقرأ فيها معنى الحياة .. وقربته الى النافذة فلم يبهره
الوهج المنصب منها مع اشعة شمس الظهيرة ..

ولفني الجزع انا الآخر واستدعيت اقرب طبيب ففحص الطفل
واستدار ليواجهنا باقوى حقيقة يسعها والدان .. ان الطفل اعمى ،
او هذا ما تقطع به الظواهر .. ثم هنالك اكثر من ظاهرة ازعجت
الطبيب وهي ان اطراف الصغير لا تتحرك بمرونة ..

اما انت .. فقد شملك ذهول خشيت عليك منه .. واما انا
فقد كان الامر لي صاعقة .. خلتها تدوي في اذني بالامثلة القديمة :
الآباء يا كلون الحصرم ..

وتعرفين يا سلوى انني لم اكن يوماً ما من أكلة الحصرم ..
وتعرفين اية حياة نظيفة عشتها .. ولكن الداء كان يسري في
شراييني مع الدم .. فاننا ابن رجل انجب غيري اخاً ولد ميتاً ..
واختاً حملت في جسمها ما يحمل ولدي ثم لم ير لها الموت مكاناً بين
ابناء الحياة فاراحها .

وها أنذا اؤخذ بجزيرة غيري .. فاقذف الى الدنيا بواحد من
الشواذ الذين يضيق بهم عالم الاقوياء ..

وكانت هذه هي الحقيقة التي لا تقبل وجهاً ثانياً ..
وما هو الا بعض شهر حتى حل بابني المصير الطبيعي الذي كان
ينتظره فمات بعد مرض قصير ..

وضرست انا من الحصرم الذي اكله ابي ..
وتذكرين يا سلوى ، تذكرين كيف انتزعت من احضانك

الشفقة قطعة منا خامدة .. وحملتها الى المقبرة .. وأرحتها في
حفرة واسعة دفنت فيها احلامنا ايضاً ثم عدت بعينين ملتاعين
وشفاة يابسة اقول - سلوى .. لا نريد ابناء بعد .. ولم تقولي
انت شيئاً .. اذ كانت امومتك الجريحة اضعف من ان تنفض ..
ولما جففت دموعك بشفتي سمعتك تتحدثين عن الحياة والموت
بصوت الفلاسفة ..

وعشنا يا سلوى نتهى بنفينا وبطعامنا وشرابنا .. بحاجتنا
اليومية ، وأغرقتك بالملابس والحي .. وارتدنا الملامي لاملأ
عالمك الفارغ فلا تقولي اريد ولداً ..
ولكنك اردت .. وارادت امومتك وارادت طبيعتك
التي تحدثها وقوت عليها باصراري .. ولكنك .. قول الحق -
كنت كريمة في سكوتك .. وشكرت لك ان فهمت وقدرت ..
وان كانت كل لفظة منك نحو طفل تتحدث بمدى قوتي .. بمدى
تحكمي فيك ..

كنت اراك قلاعين ابناء اخوتك فلا تشعين .. تمسحين
الوجوه البريئة الحلوة بأصابع مشتاقة ثم تأخذين البات ناحية
فتربطين خصلاتهن الشقر بالاشرطة الملونة ..
و كنت الاحظك تمرّين بالحمال فتطيلين التحديق الى اللعاب
والدمى ثم تنهدين كمن تقول - يا ليت ؟
ولم مرة ومرة كنت افاجئك امام كومة من ثياب ولدنا
المائت تشينها وتمسحين بها دموعك فاخرج وقد استبشعت
وجودي معك واحتقرت في نفسي هذه الانانية ..

اجل انت نفسك لم تساعدني من حيث لم تقدرني . وكانت
حاسيتي المرفقة تجرح المرة بعد المرة ، فازداد نقمة على نفسي ..
على ابي الذي اضطرني ان اكون « علائياً » بلا جريرة مني ..
وما ذنبك في ان تحلي وتعيشي مطعونة الكهوباء كأمراة ،
ومبتورة الرسالة كأنثى ، لانني لم انظر الى الامر حين اقدمت على
الزواج بك نظرة بعيدة .. بل لم يخطر ببالي ان اللعنة التي تعيش
في دمائي ستفعل فعلها في اولادي ..

وكم كنت قاسية يا سلوى حين اقبلت علي في يوم صرفت
بياضه مع شقيةاتك في بيت احدهن فعدت في المساء تقولين ..
« سالم ، لم لا نتبنى ولداً يكون عوناً لنا على الحياة .. ورددتك رداً
جافاً .. ولكنني 'ثبت' الى نفسي فعذرتك . لقد قتلك الفراغ ولم
ينفع شيء في إسكات حنينك الى سماع كلمة منقومة يناديك بها
صغير يتعلق باذبالك ..

وكانت طعنة جديدة لم تعرف معها عيناى النوم ليلتذ ..
ونفضت في الصباح بفكرة .. فكرة ما كان اقفاها على كلينا ..
نعم اي حق في ان يشدك رجل لا ينبغي غير الشواذ ؟

ان المرأة ترى في الرجل وسيلة الى غاية .. فالامومة فيها
اقوى العواطف على الاطلاق .. ان المرأة تزهد في الرجل ولكنها
لم نسمع بالام التي ابغضت ولدها .

الطلاق ...

وظلمات اصارع العزم ويصارعني .. عشت شهراً في جعيم

التردد .. ورحت ابحث عن فلسفة القوة ، فلسفة لا نعتزف بالضعفاء .
وجدتها في ه نيتشه « فأسكتَ فيها نواحي التردد في نفسي .
لم يكن من السهل ان اتخلى عنك وانا لك من تعرفين ..
وقدوت بان النبأ سيكون ضربة لك مثل ما هو لي .. ومع
ذلك أقدمت .

فلوعة شهور لا تعدل ان تعيشي بلا ابناء ، طيلة العمر .
وحسنت الامر في ساعة تبخرت فيها نزعاتي ولم يبق مني الا
فكرة مثالية سامية ..

وارسلت لك قسيمة الطلاق واخذت طريقي الى اقرب مكتب
سفريات حيث ابتعت تذكرة الى اوربا ، دون كلمة تقصر هذا
العزم المفاجيء حتى ولا لشريكى في العمل .

ولم اشك في ان هذا الملك الشاذ قد قفز بي في نظرك ونظر
الناس الى قائمة المجانين والشواذ وان بحار الحيرة التي تركتك
تترددن فيها قد كادت تفرقك . واقمت هناك اعواماً ثلاثة لم
اعدم خلالها من يخبرني بزواجك زيجة موفقة . ولم ادهش . فلك
من حلاوتك وثرائك ومركزك والدك الاجتماعي ما يكفل لك
رجلاً طيباً قد لا يحمل لك مثل حيي العظيم ولكنه قادر على ان
يهبك ابناً .

ورزقت بالولد .

وعدت انا .

عدت لا لأعرض طريقك . ولا لأجعل من نفسي بطلاً في خاطرك

بل كتبت لأحس بعض ما قدرت أن يكون قد علق بفكرك
تجاهي .. ولأعيش في نفسك فكرة نظيفة ..
والآن حسي من الحياة أن تكون لك لذة الاكتفاء ، فقبلي
عني هذا الصغير الذي منعك ما عجز عنه حبي وتقائي وكل ما فعلته
لأجلك ، فقلبي بكلمة منغومة . !

ماش أبوه

نظر الى جدته بعينين قلقتين وهي تلوك كلماتها مولولة منتحبة :
« مات ابوك يا ممدوح ... مات ابوك . »

ولم يدرك بالضبط ما تعنيه جدته العجوز . ولكن ما بال
البيت الصغير يمتلئ بالنسوة اشكالا والواناً . وهل جنت امه حتى
راحت تشد غداؤها الطويلة وتزق ثوبها .

« مات ابوك .. وما تعني هاتان الكلمتان ... ؟ لقد كان مدلولهم
ابعد من ان يعيه صغيرنا ممدوح ، فما ان مزق اذنيه عويل النادبات
والتباكيات حتى انسل فزعا مرتجف الاوصال من باب الدار
وهرب الى حيث لا يسمع ولا يرى وجه ابيه الاصفر الشمعي
الذي طالت نومه على مخد ، ولا اولئك النسوة اللواتي تحلقن حول
فراش ابيه ورحن يطلقن تلك الصيحات الكراء التي افزعت قلبا
الابيض الصغير .

وجلس في العراء على حجر خشن .. لدغته الشمس فلم يشعر
وعضه الجوع فلم يبال ... وظل يتلفت يمنة ويسرة خشيّة ان يرى
احداً جاء يطلبه .. فهو يخشى العودة ولا يريد ان يموت كابيه ..
وظل هكذا الى الماء حتى لم يعد يوسعه ان يحتمل جوعه وقلقه
وصبره وفزعه من اشباح الماء التي خافها مخبئة وراء الاحجار ..
فعاد الى البيت يرتجف في نوبة بكاء زادت عنفاً . وحدة عندما لاقت

امه باكية واخذت جسده الطري بين يديها وشدته الى صدرها
ولذعت وجهه بدموعها وهي تقول :

« مات .. مات ابوك .. يا بمدوح »

واستدار بعد هذه الكلمة ناظراً الى فراش ابيه ، فكان خالياً
كئيباً . اذن فحق ما قالته جدته وتقوله له امه . وما هذه الفورة
من الاسى والالم والفجعة الا لأن اباه مات .. او هكذا يكون
الموت الذي عرفه في حكايات جدته .. ؟؟

ولم يصب ليلتها طعاماً . ظل ملتصقاً بامه حتى غلبه النعاس فنام .
وحلم احلاماً سوداء يحاها النهار حين بدا ، وخنقتها حيوية الصغار
واستجابتهم للحياة . فني او كاد ان اباه قد مات وراح يفكر
بشؤون لهوه وهي كثيرة .. ولم يعد يذكر بعد شهور من امر
ذلك اليوم المعتم شيئاً الا حين نهم امه فتبكي وتبكي معها جدته
بكاء لا دموع له فيبكي هو الآخر وتشر من عينه دموع ما تلبث
أن تمسحها دعوة الى لعب او طعام .

وانقضى عام وجاء غيره ، ففاضت دموع امه وحل في عينيها
تطلع الى افق جديد . وكثر الحاف جدته عليها في ان تنسى ما هي
فيه . فكلنا لها وما البناء الا لله . . ولاح في افق الدار رجل
كانت جدته تستببه باقامة شدة على سعة فيها .. وفهم بمدوح من
ابناء الجيرة وبنات الثورات ان الرجل سيأخذ امه زوجة له .

ولقد صدقوا ! . ففي ذات عشة جاءت الى الدار عجائز وصبايا
صحين امه بعد ان احسن صلها وتمشطها واخذنها معهن الى
بيت الزوج الجديد ، فتعلق باذنها باكياً فما كان من واحدة من

النساء الا ان اقضته عن امه بيد معروفة ، فازداد بها تشبهاً فأخذته
هذه بين يديها وقبلته ثلاثاً وعشراً ، ورمته طويلاً بعينيهما
الدامعتين ثم اسلمته الى جدته بين عويله وصياحه . وركبت هي
العربة التي اقلتها الى بيت الزوج الجديد .

وعاد هو مع جدته بجدد اللوعة . فما ان وطئت قدمه الدار حتى
سارع الى ثوب لأمه معلق على مسمار راح يشمه وينتعب ..
وخيل اليه في تلك اللحظة انه سمع من جديد ذلك الصوت الاسود
يقول .. مات ابوك يا ممدوح ، وامك ايضاً .. قد ماتت ..

وفي الصباح اخذته جدته الى امه فردت اليه روحه . حتى اذا
نهضت جدته عائدة اقبلت عليه تأخذه ، فكان له مع امه مثل موقف
الامس .. ولكن عيناً باردة اطلت عليه من وجه زوج امه
فتداعت اصابعه ، وعاد مع جدته يحجر جناحاً مكسوراً . وكانت
القصة تتكرر ما بين يوم ويوم فيعود في كل مرة وفي نفسه اسى
عاصف ، وفي قلبه غيب على امه يزيد يوماً بعد يوم .

مكبن ممدوح ! لقد تعلم البغض صغيراً .. اخذه درساً عن
ذلك الرجل واهله . وتعلم ايضاً ان يكره امه التي تركته مفضلة
عليه هؤلاء الثقلاء .. زوجها واخيه المعروفة الدين . وكان كلما
كبر يكبر معه نفوره من امه ! . فلم يعد يلحف على جدته في
ان تأخذه اليها بل صار يتهرب من طريقها ويفقد عليه محاولاتها
في ملاقاته .

كان اذا قابلها في الدرب سلم للريح ساقاً خفيفة . ويتمتع عن
دخول المنزل كلما اشم رائحتها فيه . وقد سارت بها الحياة في غير

الطريق التي سارت به فيها . فانتقلت وزوجها بحكم عمله الى مدينة اخرى وبقي هو في بلدته نجاراً شاباً نشيطاً حسن العمل والريح . وعاش في بيته وحيداً اذ تركته جدته الى الرحلة التي لا بد منها . وغابت امه سنين فلم يقع له بصر عليها . ولم يعد لها في قلبه مكان . كتبت له مرة فلم يردّ ودعته لزيارتها فضحك ساخراً . وابى وقد كبر واصبح اكثر تفهماً للاشياء وطبيعة الحياة وشؤونها ان يجدها عذراً في اتخاذها زوجاً ثانياً بعد ابيه .

لقد نظر الى الامر من ناحية انانية صرفة . لقد دغته بحر حياة جافة لا تدفئها انفاس انثى ، وخلاه رحيلها يحيا في جو « مات ابوك » اعواماً من الجذب العاطفي . اذن فهي ليست مستحقة ان تكون له امّاً . ولمكنها كانت امه .. وكلمة غضب تلفظها شفتان في سورة حتى لا تحقق نداء الدم .

عاد يوماً الى بيته في المساء متعباً بعد عمل يوم طويل فرأى على عتبة الدار امرأة متكومة وبقرها صبي . فما ان رآته هي حتى هبت صائحة : « ممدوح يا ابني .. انا امك الا تعرفني ؟ »

ولم تختلج من وجه ممدوح عضلة واحدة ولم يحن قامته المنتصبة ليتمكن شفتيها المشتاقين من خده ، بل مد يده الى جيبه واخرج مفتاحاً ادار به الباب ، ودخل واغلق الباب وراءه . ثم راح يتمشى في العرفة بعصية . ماذا تريد منه بعد كل هذه الاعوام .؟ لتسكت .. ان نداءها وهمها باسمه من وراء الباب يمزقان اعصابه . وضعف اخيراً امام لفتها فمد يده الى الباب وأدار المفتاح ولكنه ابقاه مغلقاً ثم عاد يتمشى من جديد . وبعد لحظات خالها دهرأ ارتفعت زلاجة

الباب وانفرجت الدفتان وأظلت امه برأسها .
كان وجهها مغسولاً بدموعها .. له حلاوة الوجه القديم ، وجه
امه . امه .. ووقف قليلا وتطلع اليها فرمت نفسها عليها وامسكت
وجهه بين راحتيها واشبعته تقييلاً . وانتصر في نفسها الدم الواحد .
قالت وقد هدأت سورة انفعالها : « الاتدعو الولد ؟ »

قال : « اي ولد ؟ »

قالت : « أخوك .. ابن الرجل الاخر .. الذي مات . »
واطرق قليلا ثم مشى الى الباب وفتحه . ودعا الصغير
للدخول مبتها له ابتسامة حانية يذهب معها عن الصبي بعض ما في
نفسه ، فلا يترأ في عين بمدوح ما قرأ بمدوح مرة في عين ابيه
الباردة .. تلك الحقيقة المؤلمة التي طالعت من ثنايا .. مات ..
مات ابوك .

انتهى

فهرست



ص	
۳	الاشياء الصغيرة
۱۳	حكايتها
۲۱	الى حين
۳۱	الشيخ مبروك
۳۷	عقب سيجارة
۴۵	على الدرب
۵۱	في المفكرة
۵۵	زواج العمة
۶۳	امومة خيرة
۶۹	بائع الصحف
۷۵	نافع الدواليب
۸۱	ماما
۸۹	مات ابوه

۲۰۰۰/۰۴/۲/۱۹۳

٢١٥
٢١٥
٢١٥

٢١٥



صدر حديثاً

ق.ل.

- | | | |
|-----|----------------------------|---------------------------------------|
| ٣٠٠ | للسيدة سلمى الحفار الكزبري | • يوميات هالة |
| ٢٥٠ | للأنسة روز غريب | • النقد الجمالي واثره في النقد الغربي |
| ٣٠٠ | للاستاذ عبد الله العلايلي | • ايام الحسين |
| ٢٥٠ | للدكتور سهيل ادريس | • الحي اللاتيني |
| ٢٠٠ | » » » | • اشواق |
| ١٠٠ | » » » | • نيران وثلوج |
| ١٠٠ | » » » | • كلهن نساء |
| ١٠٠ | للاستاذ رياض طه | • شفتان بخيلتان |
| ١٥٠ | للاستاذ سعيد تقى الدين | • غابة الكافور |
| ١٥٠ | للدكتور عبد السلام العجيلي | • ساعة الملازم |
| ٢٠٠ | للاستاذ اديب مروّة | • مسارح وابطال |